إسكات التاريخ الفلسطيني

ا قدمة

تمهيد : ـ

يعالج هذا الكتاب المكتشفات الأثرية المادية والأيدلوجية والدين في المنطقة ، ولم يهتم الكاتـب بالقضايا الأعم للتاريخ مثل الاستيطان والديموغرفيا والاقتـصاد فيعتبرهـا الطـرف المـضاد للدراسات التاريخية التقليدية لإسرائيل القديمة ، والمستندة إلى التراث التوراتي الذي هيمن على الدراسات التوراتية منذ القرن التاسع عشر ، ولكن الكاتب أثناء بحثه عن المعلومـات الأثريـة والأنثروبولوجية اتضح له أن هذا المشروع محكوم عليه بالفشل ، فأي محاولة لكتابـة تـاريخ فلسطين كبديل للتواريخ التقليدية لإسرائيل التي هيمنت على الدراسات التوراتية فـي القـرنين التاسع العشر والعشرين ، سوف تتعرض لخطر سوء الفهم على أساس أنها جهد يشوبه الغرور ، وقد كان الكاتب يطمح إلى الكتابة في هذا الموضوع ، ولكنـه وجـد أن الكتابـة فـي هـذا الموضوع ستواجه العقبات الضخمة المسماة ، (خطاب الدراسات التوراتيـة) فهـذا الخطـاب يشكل جزءا من شبكة معقدة من الدراسات العلمية وتجاهل الكاتب الدراسات التوراتية في تاريخ فلسطين القديم و ذلك لأنها أسكتت التاريخ الفلسطيني نظرا لان مجال اهتمام هذه الدراسات هو إسرائيل القديمة التي فهمها وتصويرها على أنها منبع الحضارة الغربية وهذا العمل ليس تاريخا آخر لإسرائيل القديمة ، كما انه ليس تاريخا لفلسطين القديمـة ، وهـذا الكاتـب يهـتم بكـلا التاريخيين ولكن لايمكن وصفه بأنه تاريخ لأي منهما .

إن هذين التاريخيين يحتلان مكانة مركزية فيه ، والكتاب أيضا محاولة لإيضاح معالم (فكـرة) هذه الفكرة (تاريخ فلسطين القديم موضوع قائم بذاته يحتاج إلى التحرر من قبضة الدراسـات التوراتية .

ويعتبر الكاتب التاريخ الفلسطيني فرعا (صغيراً) من الدراسات التوراتية التي هيمنـت علـى الدراسات التاريخية المستوحاة من التوراة ، وكذلك البحوث الأثرية المتعلقة بإسرائيل القديمـة فان تاريخ فلسطين وخاصة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثاني الميلادي لا وجود له علميا إلا كخلفية لتواريخ إسرائيل ويهودا أو فترة الهيكل الثاني اليهودية .

لقد صنف الكاتب تاريخ فلسطين تحت بند التطورات الاجتماعية والسياسية والدينية لإسـرائيل القديمة

ويقول الكاتب بان البحث في موضوع إسرائيل القديمة قد استهلك طاقات فكرية ضخمة وكذلك موارد مادية هائلة

ويسال الكاتب عن إمكانية إيجاد المواد حول تاريخ فلسطين القديم ويجيب بأنه يوجد عدد متزايد من المواد حول الآثار الفلسطينية فقد انبثقت هذه من النقاش الحامي حول وجـود فـرع آثـار سوري – فلسطيني في مقابل الآثار التوراتيه

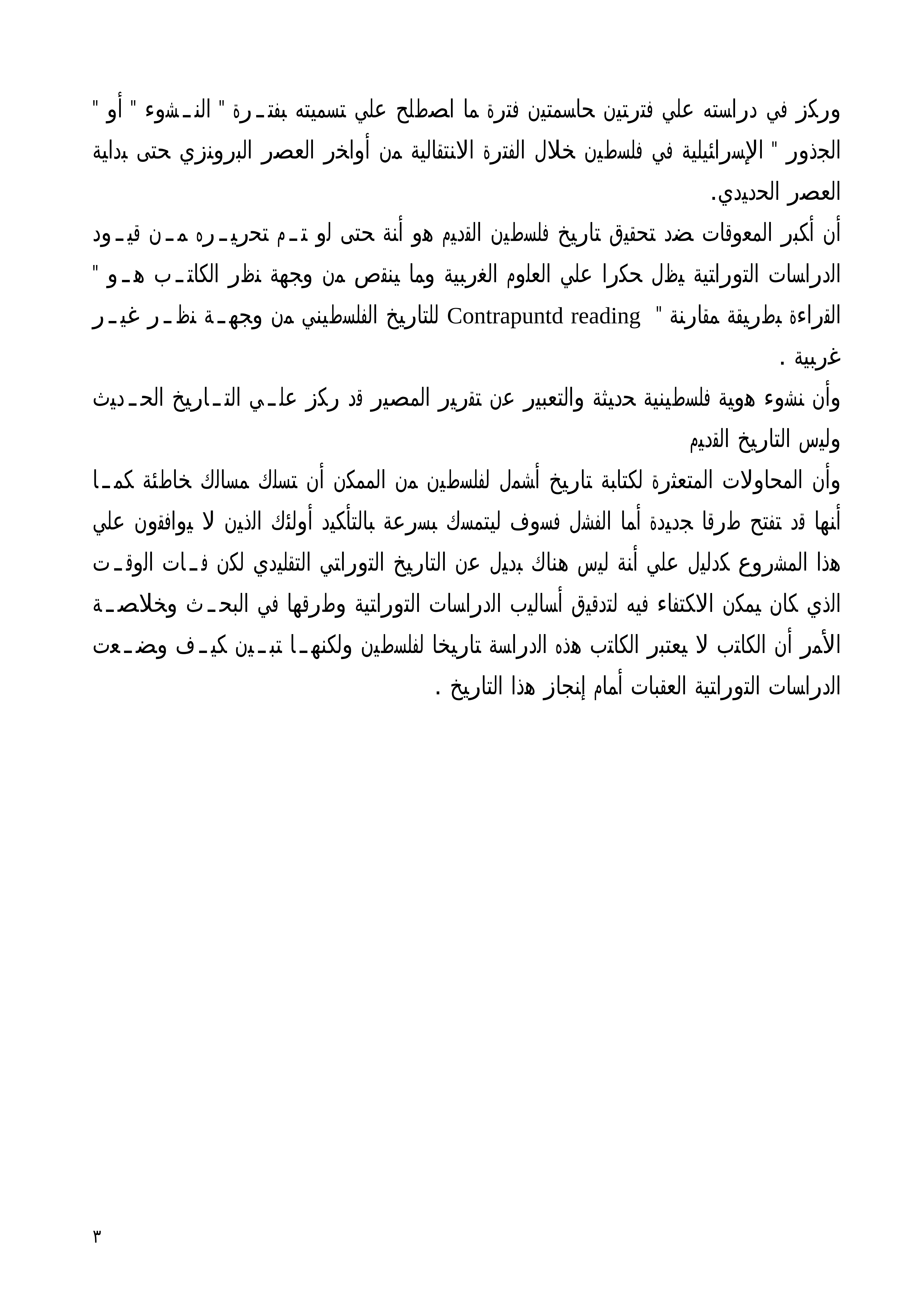
ولكن يبدو أن تاريخ فلسطين غير موجود من الأساس لقد أسكته الخطاب التـوراتي المهمـين

ويقول الكاتب إن تهميش تاريخ فلسطين القديم يمكن التدليل علية من خلال البيلوغرافيا الممتازة للتواريخ المهمة لإسرائيل ويهودا ، يجب الوعي أن سيطرة اللاهوت هذه ؛ ومـا لـذلك مـن مضامين و أبعاد سياسية وثقافية يجب أن تكون في أذهاننا كي نفهم كيـف تمكنـت الأوسـاط العلمية الغربية من اختراع إسرائيل القديمة وإسكات التاريخ الفلسطيني ، بالإضافة إلـي هـذا التهميش لا يسمحون للتاريخ الفلسطيني القديم بالوجود .

ويقول الكاتب: ـ أن بإمكانه متابعة كيفية اختراع إسـرائيل القديمـة حيـث سـيطرت علـي الدراسات التوراتية منذ نشأتها فكرة مؤداها أن فهم تاريخ إسرائيل القديمة جوهري لفهم التوراة العبرية وكانت محل الاهتمام الأول بالنسبة للدراسات اللاهوتية المسيحية فهي دين يعتمد علـي الوحي في التاريخ ، وقد بين فيليب ديفيس Philip Davies أن " إسرائيل القديمة " المـذكورة في الدراسات التوراتية هي من اختراع عقول العلماء وأن هذا الاعتقاد مبني علي فهم خـاطئ للتراث التوراتي بل إنه بعيد عن الحقيقة التاريخية .

فالدراسات التوراتية عبارة عن شبكة متداخلة وقوية من الأفكـار والتوكيـدات التـي يعتقـد ممارسوها أنها نتاج الدراسات العلمية الموضوعية بينما ما هي إلا ممارسة للقوه والكاتب يواجه معضلة اختلاق "إسرائيل القديمة " التي أضافت عليها الدراسات العلمية جوهرها وقوتها كبنـاء علمي ، بينما يفتقر التاريخ الفلسطيني إلي هذا الجوهر وحتى إلي مجرد الوجود في المؤسسات الأكاديمية .

فالجوهر الأساس لمضمون هذا الكتاب هو محاولة لتفصيل تأثيرات التغيـرات العميقـة التـي شهدتها الدراسات التوراتية خلال العقدين الأخيرين في البحث التاريخي حيث يقول الكاتـب أن تاريخ إسرائيل القديم يبدو كلحظة قصيرة في التاريخ الفلسطيني الطويل .



وركز في دراسته علي فترتين حاسمتين فترة ما اصطلح علي تسميته بفترة " النشوء " أو " الجذور " الإسرائيلية في فلسطين خلال الفترة الانتقالية من أواخر العصر البرونزي حتى بداية العصر الحديدي.

أن أكبر المعوقات ضد تحقيق تاريخ فلسطين القديم هو أنة حتى لو تم تحريره من قيود الدراسات التوراتية يظل حكرا علي العلوم الغربية وما ينقص من وجهة نظر الكاتب هو " القراءة بطريقة مقارنة " Contrapuntd reading للتاريخ الفلسطيني من وجهة نظر غير غربية .

وأن نشوء هوية فلسطينية حديثة والتعبير عن تقرير المصير قد ركز علي التاريخ الحديث وليس التاريخ القديم

وأن المحاولات المتعثرة لكتابة تاريخ أشمل لفلسطين من الممكن أن تسلك مسالك خاطئة كما أنها قد تفتح طرقا جديدة أما الفشل فسوف ليتمسك بسرعة بالتأكيد أولئك الذين لا يوافقون علي هذا المشروع كدليل علي أنة ليس هناك بديل عن التاريخ التوراتي التقليدي لكن فات الوقت الذي كان يمكن الاكتفاء فيه لتدقيق أساليب الدراسات التوراتية وطرقها في البحث وخلاصة الأمر أن الكاتب لا يعتبر الكاتب هذه الدراسة تاريخا لفلسطين ولكنها تبين كيف وضعت الدراسات التوراتية العقبات أمام إنجاز هذا التاريخ .

الفصل الأول

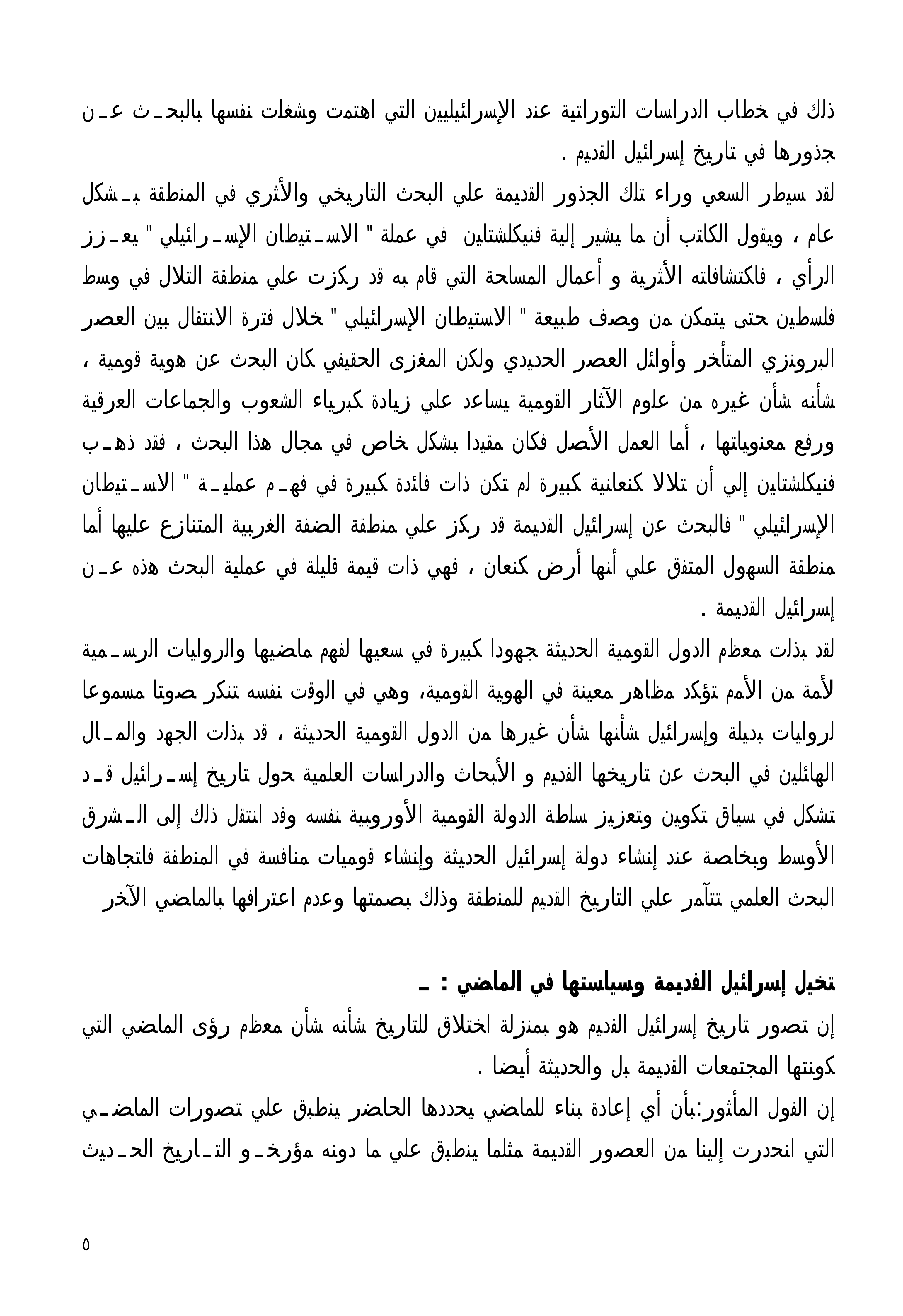
نصوص منحازة وتواريخ متصدعة

إن تصور ا اضي و ثله أمر تكتنفه الصعوبات ليس رد غموض ا علومات التار ية وقلتها ولكن لأن إعادة بناء **التاريخ هو عمل سياسي بالدرجة الأو فا دل القد الذي قامت به عدة اولات حول إمكانية كتابة التاريخ القد لإسرائيل قد دأب ، علي الصعوبات ال جا ت تفس الشواهد التار ية .**

غير أن هذا النقاش المحتوم له مضامين سياسية عميقة قلما كانت تظهر علي السطح أما السبب الدقيق لهذا النقاش فهو يتعلق بالعناصر السياسية والثقافية والدينية المتضمنة في إعـادة بنـاء تاريخ إسرائيل القديم . وهذا الميدان أن مشكلة تاريخ فلسطين القديم هي أنـه مـا زال غيـر مصرح به محتجبا في الخطاب السائد في الدراسات التوراتية ، تلك الدراسات التي تهتم أساسا بالبحث عن تاريخ إسرائيل القديم علي أساس أنه هو الميدان الذي يعين علي فهم تراث التوراة العبرية وهو في نهاية المطاف المنبع الأول للحضارة الغربية والأوروبية

وبهذا يتضح أن الرؤية للماضي هي شئ سياسي بالدرجة الأولى كما أن لها تداعيات مهمة في العالم الحديث ، لأن هذه التمثيليات الذهبية تؤكد الشخصية الاجتماعية أو تنكرها ، فمن الواضح أن أحد العوامل المهمة لفهم " تاريخ إسرائيل القديم " وتواريخ الكيانات الأخرى ، وإن كان هذا العامل غير مصرح به دائما ، هو أن كتابة التاريخ هي عمل سياسي ، وكيف أن تلك المواقف والآراء السياسية تحدد برنامج البحث وتؤثر بشكل قوي في نتاج أبحاث المؤرخين ، وأن هـذا البرنامج يؤدي إلي كتابة " نصوص منحازة " أما في حالة الدراسات التوراتية فقد ركزت علي " كيان " هو " إسرائيل القديمة " بينما تجاهلت حقيقة التاريخ الفلسطيني بشكله المتكامل

لقد اهتمت اتجاهات البحث العلمي عند الأوروبيين قبل سنة ١٩٤٨ وفيما بعد ذلك ، بالبحث عن جذور الدولة القومية في التاريخ التوراتي القديم ، ومنذ إنشاء دولة إسرائيل الحديثة أعيد فرض



ذلك في خطاب الدراسات التوراتية عند الإسرائيليين التي اهتمت وشغلت نفسها بالبحث عن جذورها في تاريخ إسرائيل القديم .

لقد سيطر السعي وراء تلك الجذور القديمة علي البحث التاريخي والأثري في المنطقة بشكل عام ، ويقول الكاتب أن ما يشير إلية فنيكلشتاين في عملة " الاستيطان الإسرائيلي " يعزز الرأي ، فاكتشافاته الأثرية و أعمال المساحة التي قام به قد ركزت علي منطقة التلال في وسط فلسطين حتى يتمكن من وصف طبيعة " الاستيطان الإسرائيلي " خلال فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي ولكن المغزى الحقيقي كان البحث عن هوية قومية ، شأنه شأن غيره من علوم الآثار القومية يساعد علي زيادة كبرياء الشعوب والجماعات العرقية ورفع معنوياتها ، أما العمل الأصل فكان مقيدا بشكل خاص في مجال هذا البحث ، فقد ذهب فنيكلشتاين إلي أن تلالا كنعانية كبيرة لم تكن ذات فائدة كبيرة في فهم عملية " الاستيطان الإسرائيلي " فالبحث عن إسرائيل القديمة قد ركز علي منطقة الضفة الغربية المتنازع عليها أما منطقة السهول المتفق علي أنها أرض كنعان ، فهي ذات قيمة قليلة في عملية البحث هذه عن إسرائيل القديمة .

لقد بذلت معظم الدول القومية الحديثة جهودا كبيرة في سعيها لفهم ماضيها والروايات الرسمية لأمة من الأمم تؤكد مظاهر معينة في الهوية القومية، وهي في الوقت نفسه تنكر صوتا مسموعا لروايات بديلة وإسرائيل شأنها شأن غيرها من الدول القومية الحديثة ، قد بذلت الجهد والمال الهائلين في البحث عن تاريخها القديم و الأبحاث والدراسات العلمية حول تاريخ إسرائيل قد تشكل في سياق تكوين وتعزيز سلطة الدولة القومية الأوروبية نفسه وقد انتقل ذلك إلى الشرق الأوسط وبخاصة عند إنشاء دولة إسرائيل الحديثة وإنشاء قوميات منافسة في المنطقة فاتجاهات البحث العلمي تتآمر علي التاريخ القديم للمنطقة وذلك بصمتها وعدم اعترافها بالماضي الآخر

تخيل إسرائيل القديمة وسياستها في الماضي : ـ

إن تصور تاريخ إسرائيل القديم هو بمنزلة اختلاق للتاريخ شأنه شأن معظم رؤى الماضي التي كونتها المجتمعات القديمة بل والحديثة أيضا .

إن القول المأثور:بأن أي إعادة بناء للماضي يحددها الحاضر ينطبق علي تصورات الماضي التي انحدرت إلينا من العصور القديمة مثلما ينطبق علي ما دونه مؤرخو التاريخ الحديث

والمعاصر والسؤال الجوهري الذي يجب أن يكون في الذهن هو الآتي " ما الفرض الذي يؤديه تصور معين للماضي ، وما التصورات الممكنة الأخرى للماضي التي ينكرها تصور معين " ؟

إن إقحام السياسية في ميدان كتابة تاريخ إسرائيل القديم لم يثر جدلا واسعا لأن معظم دارسـي التوراة كانوا متفقين علي المبادئ الأساسية لمشروعهم ، وكانت ثقافتهم بالمـصادر التوراتيـة وإيمانهم بها وبصحتها التاريخية ثقة كبيرة ، وكذلك الأمر بالنسبة لموضوعية الباحث التوراتي الحديث الذي كان بدوره موضع ثقة كبيرة ، وعلي الرغم من بعض التحولات المهمـة خـلال العقد الأخير فيما يتعلق بالمشاكل التي تفترض إعادة بناء تاريخ إسرائيل القديم ، فـان الرؤيـة التي لا تزال مهيمنة هي أن التراث التوراتي يوفر القاعدة والمصدر الأساسـي للمـؤرخ فـي شؤون إسرائيل .

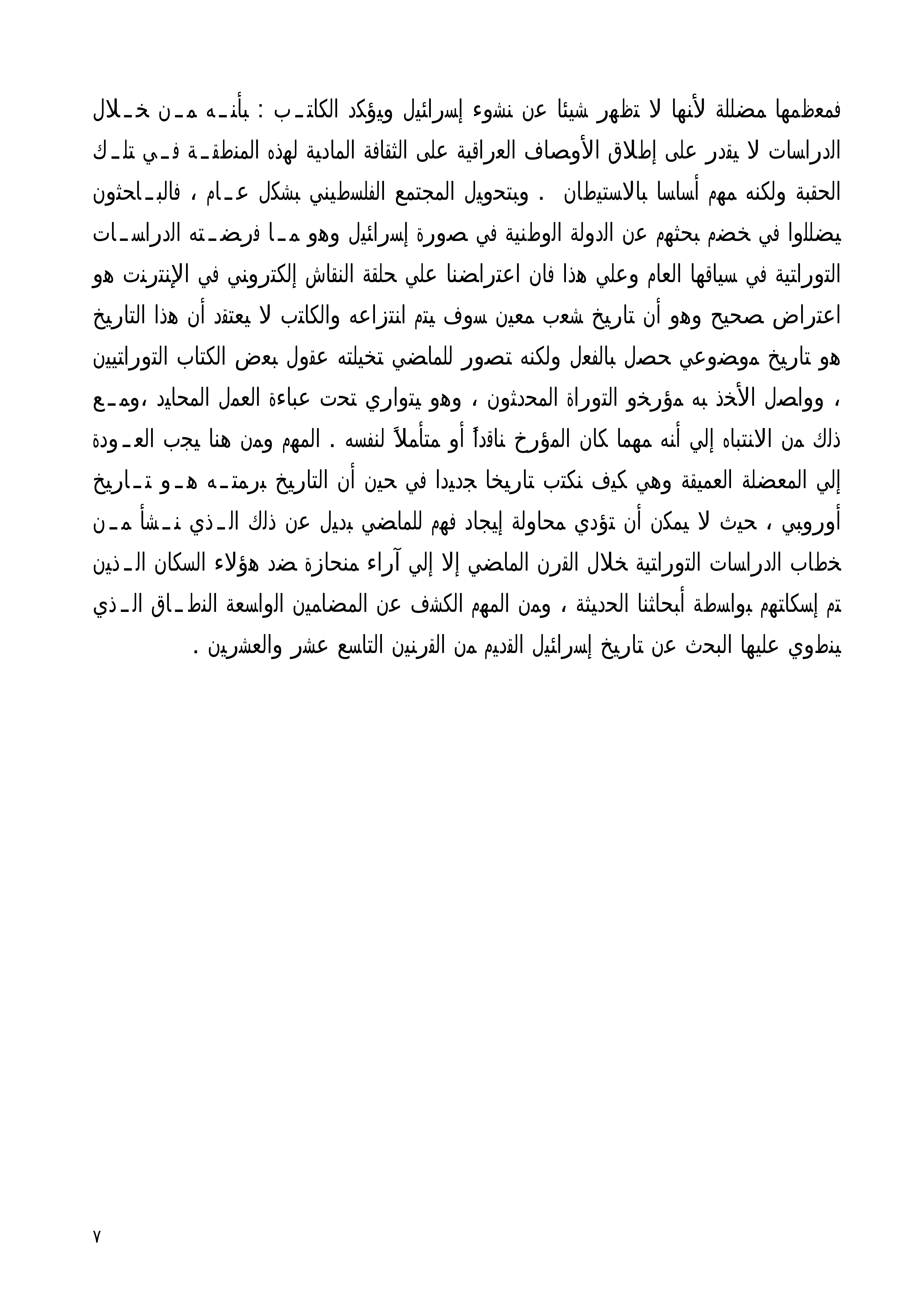
ويتعرض الكاتب " كيث " لدراسة هالبرن ويقول بأنها تتسم بالأهمية لأنها محاولة أحد الكتـاب التعرض لهذا الموضوع المهم وهو مدي الموضوعية والثقة التي يمكن أن تضاف إلي التـراث التوراتي، وفي محاولته الدفاع عن المؤرخين الإسرائيليين القدماء في وجه ناقـديهم المحـدثين الذين يصفون المؤرخين القدماء بأنهم " لا منطقيون ولا يتمتعون بالذكاء وكاذبون "

ويري هالبرن أن الاقتصاد في سرد الأحداث التاريخية وهو المؤشر الذي يدل علي أن البحـث هو بحث تاريخي وليس قصة تاريخية ، وحتى يفلت من الانتقاد الحتمي بأن الاقتصاد في سرد الروايات لا يمكن اعتباره معيارا كافياً لاطلاق حكم من هذا النوع .

تواريخ متصدعة :-

يؤكد الكاتب بعد إيراده للنصوص القديمة والحديثة حول تاريخ إسرائيل القديم بأنه يجب عـدم التسليم بهذه الروايات لعدم توافر الدليل عليها .

ولقد كانت إحدى النتائج الأساسية للبحث التاريخي ايذانه بموت (التاريخ التوراتي الـذي يـتم استبداله بشكل تدريجي بالاعتراف بالتاريخ الفلسطيني كموضوع قائم بذاته ،وهو فهـم لتـاريخ المنطقة يزداد ابتعادا وانفصالا عن الدراسات التوراتية كما انه مفهوم موضـوعي لتـاريخ ذي قاعدة عريضة ،يهتم بالاقتصاد والسكان والاستيطان والأديان والأيديولوجية الخاصة بفلـسطين بشكل عام ، إن تاريخا للمنطقة يهتم بتواريخ البيئات الصغيرة وتحتل فيه إسرائيل ويهودا مكانة مهمة مثل هذا التاريخ وإذا كانت الأعمال التي عالجت موضوع تاريخ إسـرائيل القـديم فـي منتصف الثمانينات حتى نهايتها علمتنا أن جميع افتراضاتها لم تكن جذرية بما فيـه الكفايـة ،



فمعظمها مضللة لأنها لا تظهر شيئا عن نشوء إسرائيل ويؤكد الكاتب : بأنه من خلال الدراسات لا يقدر على إطلاق الأوصاف العراقية على الثقافة المادية لهذه المنطقة في تلك الحقبة ولكنه مهم أساسا بالاستيطان . وبتحويل المجتمع الفلسطيني بشكل عام ، فالباحثون يضللوا في خضم بحثهم عن الدولة الوطنية في صورة إسرائيل وهو ما فرضته الدراسات التوراتية في سياقها العام وعلي هذا فان اعتراضنا علي حلقة النقاش إلكتروني في الإنترنت هو اعتراض صحيح وهو أن تاريخ شعب معين سوف يتم انتزاعه والكاتب لا يعتقد أن هذا التاريخ هو تاريخ موضوعي حصل بالفعل ولكنه تصور للماضي تخيلته عقول بعض الكتاب التوراتيين ، وواصل الأخذ به مؤرخو التوراة المحدثون ، وهو يتواري تحت عباءة العمل المحايد ،ومع ذلك من الانتباه إلي أنه مهما كان المؤرخ ناقداً أو متأملاً لنفسه . المهم ومن هنا يجب العودة إلي المعضلة العميقة وهي كيف نكتب تاريخا جديدا في حين أن التاريخ برمته هو تاريخ أوروبي ، حيث لا يمكن أن تؤدي محاولة إيجاد فهم للماضي بديل عن ذلك الذي نشأ من خطاب الدراسات التوراتية خلال القرن الماضي إلا إلي آراء منحازة ضد هؤلاء السكان الذين تم إسكاتهم بواسطة أبحاثنا الحديثة ، ومن المهم الكشف عن المضامين الواسعة النطاق الذي ينطوي عليها البحث عن تاريخ إسرائيل القديم من القرنين التاسع عشر والعشرين .

الفصل الثاني

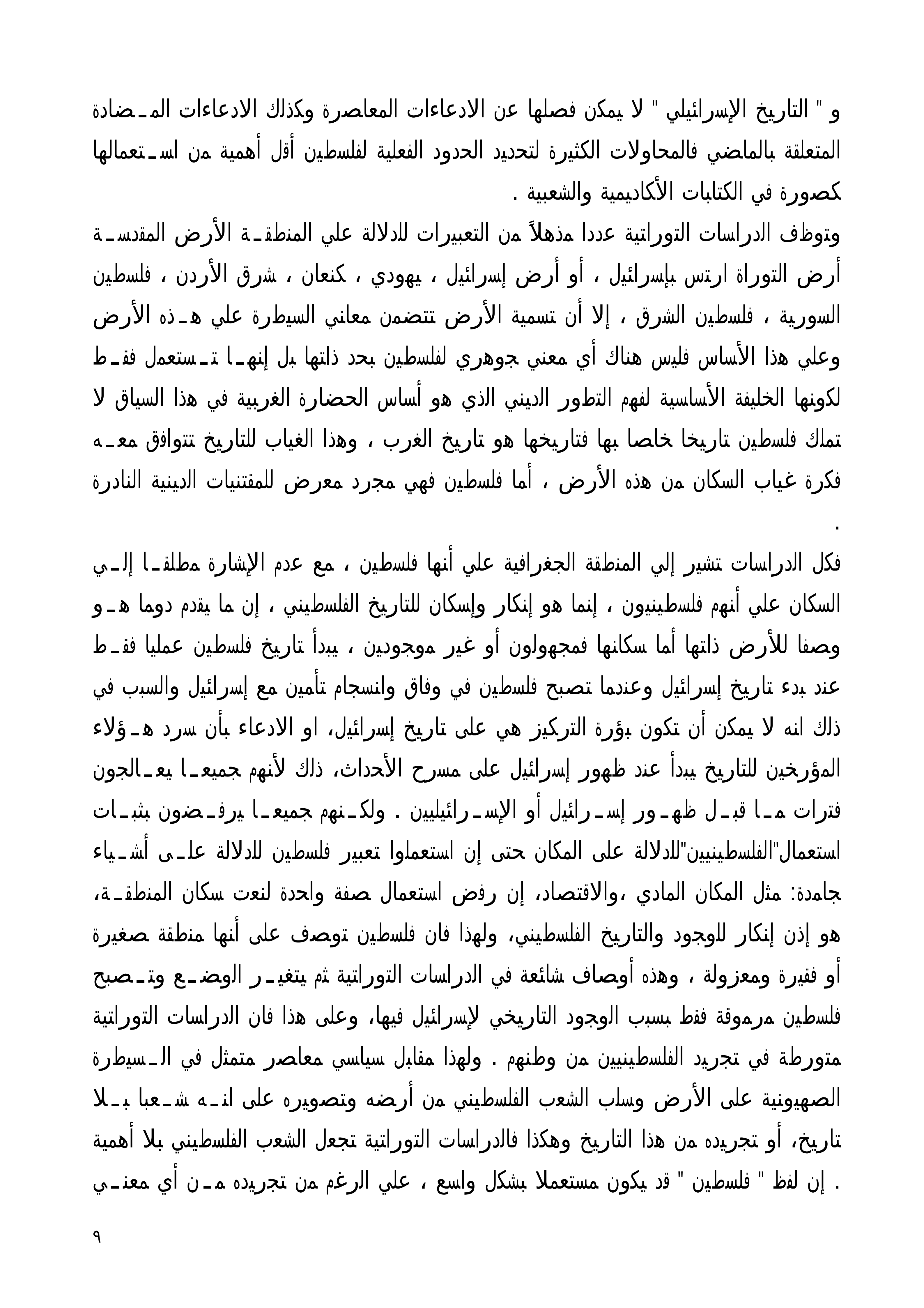
إنكار المكان والزمان علي التاريخ الفلسطيني

إن دراسة مسألتي المكان والزمان ليست أمرا يسيرا بالنسبة للمؤرخ بحيث يمكنه المرور عليها مرورا سريعا باعتبارها مقدمة للعمل الذي ينوي دراسته ، فالمكان والزمان هما محصلات اجتماعية ، ومثل إعادة تكوين الماضي ، فهما مرتبطان بمفهومي الهوية والسلطة فمثلا الخلاف القديم في دول البلقان حول استعمال اسم مقدونيا يظهر بشكل حاسم أهمية ارتباط المكان بالهوية ، لذلك يمكن القول أن هذين المفهومين التوأمين (الزمان والمكان) حاسمان في محاولة سبر غور التاريخ الفلسطيني القديم .

يقول رو برت أولتر Alter أن الربط بين التاريخ القديم والسياسة المعاصرة فيما يتعلق بإسرائيل هو " شئ ملائم إذا ما أخذنا في الاعتبار خصوصية موقع إسرائيل في التاريخ والجغرافيا " إن خطاب الدراسات التوراتية يدعي في إعادة تكوين ماضٍ يؤثر في المواقف الإيجابية أو السلبية التي تتخذ في الحاضر أنه يظل خارج أو فوق مستوي الصراعات السياسية المعاصرة ويصبح الأمر جلياً إذا ما تمت المقارنة بين التاريخ المحلي لفلسطين القديمة ، وبين التواريخ التوراتية أو إذا ما وضع كل من التاريخيين في منافسة مع الآخر فخطاب الدراسات التوراتية يعلن أنة قد يبقي بعيدا عن الوضع السياسي الحالي ، بينما استمر في إنكار المكان والزمان علي الفلسطينيين مهما طالبوا بحقهم في الماضي وهذا الخطاب التوراتي قد أعطي الزمان والمكان الجغرافي لإسرائيل فقط .

- إنكار المكان علي الفلسطينيين:-

من المسلمات أن تعريف المكان والسيطرة علية كانا من العوامل الأساسية في تحديد أوروبا لذاتها " وللآخر " وهو الوجه المضاد لما تراه أوروبا في نفسها من عقلانية وقوة ثبات فاستعمال تعبير فلسطين هو بالضرورة مسألة ذات علاقة وطيدة بالخطاب الاستشراقى نفسه وتكوينه لصور الماضي ، أما الدراسات فلم تبق في معزل عن هذه الأفكار الاستشراقية وتكوينها للشرق بما فيها فلسطين ، فالتاريخ " التوراتي التقليدي " الخاص بإسرائيل دائما يبدأ بفصل مخصص للجغرافيا وتعريف المكان ، فيجب التنبه للعلاقة المتبادلة بين تنقيب الدراسات التوراتية عن " إسرائيل القديمة " وصعود الدول القومية الأوروبية إلي بعض المشاكل التي تعترض محاولة تحديد الأبعاد ذات العلاقة بالمكان فمسألة " فلسطين " والتاريخ الفلسطيني في مقابل " إسرائيل "


و " التاريخ الإسرائيلي " لا يمكن فصلها عن الادعاءات المعاصرة وكذلك الادعاءات المـضادة المتعلقة بالماضي فالمحاولات الكثيرة لتحديد الحدود الفعلية لفلسطين أقل أهمية من اسـتعمالها كصورة في الكتابات الأكاديمية والشعبية .

وتوظف الدراسات التوراتية عددا مذهلاً من التعبيرات للدلالة علي المنطقـة الأرض المقدسـة أرض التوراة ارتس بإسرائيل ، أو أرض إسرائيل ، يهودي ، كنعان ، شرق الأردن ، فلسطين السورية ، فلسطين الشرق ، إلا أن تسمية الأرض تتضمن معاني السيطرة علي هـذه الأرض وعلي هذا الأساس فليس هناك أي معني جوهري لفلسطين بحد ذاتها بل إنهـا تـستعمل فقـط لكونها الخليفة الأساسية لفهم التطور الديني الذي هو أساس الحضارة الغربية في هذا السياق لا تملك فلسطين تاريخا خاصا بها فتاريخها هو تاريخ الغرب ، وهذا الغياب للتاريخ تتوافق معـه فكرة غياب السكان من هذه الأرض ، أما فلسطين فهي مجرد معرض للمقتنيات الدينية النادرة .

فكل الدراسات تشير إلي المنطقة الجغرافية علي أنها فلسطين ، مع عدم الإشارة مطلقـا إلـي السكان علي أنهم فلسطينيون ، إنما هو إنكار وإسكان للتاريخ الفلسطيني ، إن ما يقدم دوما هـو وصفا للأرض ذاتها أما سكانها فمجهولون أو غير موجودين ، يبدأ تاريخ فلسطين عمليا فقـط عند بدء تاريخ إسرائيل وعندما تصبح فلسطين في وفاق وانسجام تأمين مع إسرائيل والسبب في ذلك انه لا يمكن أن تكون بؤرة التركيز هي على تاريخ إسرائيل، او الادعاء بأن سرد هـؤلاء المؤرخين للتاريخ يبدأ عند ظهور إسرائيل على مسرح الأحداث، ذلك لأنهم جميعـا يعـالجون فترات مـا قبـل ظهـور إسـرائيل أو الإسـرائيليين . ولكـنهم جميعـا يرفـضون بثبـات استعمال"الفلسطينيين"للدلالة على المكان حتى إن استعملوا تعبير فلسطين للدلالة علـى أشـياء جامدة: مثل المكان المادي ،والاقتصاد، إن رفض استعمال صفة واحدة لنعت سكان المنطقـة، هو إذن إنكار للوجود والتاريخ الفلسطيني، ولهذا فان فلسطين توصف على أنها منطقة صغيرة أو فقيرة ومعزولة ، وهذه أوصاف شائعة في الدراسات التوراتية ثم يتغيـر الوضـع وتـصبح فلسطين مرموقة فقط بسبب الوجود التاريخي لإسرائيل فيها، وعلى هذا فان الدراسات التوراتية متورطة في تجريد الفلسطينيين من وطنهم . ولهذا مقابل سياسي معاصر متمثل في الـسيطرة الصهيونية على الأرض وسلب الشعب الفلسطيني من أرضه وتصويره على انـه شـعبا بـلا تاريخ، أو تجريده من هذا التاريخ وهكذا فالدراسات التوراتية تجعل الشعب الفلسطيني بلا أهمية . إن لفظ " فلسطين " قد يكون مستعملا بشكل واسع ، علي الرغم من تجريده مـن أي معنـي

لذاته فان لفظ " فلسطينيون " باعتبارهم هم مكان هذه الأرض هو استعمال نـادر للغايـة فـي الدراسات التوراتية . فان كانت هناك أرض تدعي فلسطين ، فلماذا لا يمكن تسمية مواطنيهـا بالفلسطينيين .

إنكار الزمان علي التاريخ الفلسطيني :-

إن مفهوم الزمان ، مثله مثل المكان ، هو مفهوم سياسي ، وهو " أداة القوة التـي تـستخدمها الأيديولوجية " وقد تم استغلاله من قبل الدراسات التوراتية لإنكار أي حقيقـة زمنيـة للتـاريخ الفلسطيني ، لقد تم بفعالية إنكار تاريخ فلسطين القديم وزمانها الخاص ، بل انه أصبح موضوعا لطغيان الزمان التوراتي من جراء تقسيم التوراة العبرية إلي فترات جامدة ، وهذا التقسيم كـان العامل الأساسي ، الذي حدد مجري خطاب الدراسات التوراتية ، فتم تقسيم تـاريخ المنطقـة بشكل متقن في خانات فكانت هناك مرحلة الآباء ثم الخروج والغزو والاسـتيطان ثـم تبعهـا مرحلة مملكتي داود وسليمان الموحدتين وممالك يهودا المقسمة وإسرائيل،ثم المنفي وبعد ذلـك الإصلاح ، وعلي هذا الأساس يصبح تاريخ المنطقة هو تاريخ الشخصيات والأحداث الأساسية في التراث التوراتي، لم يتغير هذا الوضع من جراء النقاش الحامي خلال الـسنوات الأخيـرة والدائرة حول نقطة البداية للتاريخ الإسرائيلي ،ذلك النقاش الذي شهد ضياع فترة الآباء وفتـرة الخروج والغزو في ضوء الدراسات الأدبية ، والمكتشفات الأثرية ، وبدلاً من إعادة الاعتبـار للزمان الفلسطيني ابتداء من القرن التاسع عشر حتى القرن الثالث قبل الميلاد كان ما حصل هو مجرد إبراز أن التاريخ الفلسطيني قد أنكر عنه زمانه.

الفصل الثالث

"اختلاق إسرائيل القديمة"

البحث عن إسرائيل القديمة : ـ

لقد مثل البحث عن إسرائيل القديمة موضوعاً علي هذا القدر من الأهمية بالنسبة للدراسات التوراتية . نظراً لأن الفرضية التاريخية كانت تدعي دائماً أن هذه الفترات هي التي أمدتها بالقدرة علي الفهم لتاريخ إسرائيل وكذلك تعريف الكثير من الموضوعات التوراتية . وبذلك أصبح تاريخ فلسطين هو أحد التواريخ المستبعدة بسبب اختلاق إسرائيل القديمة وتحديد فترة نشوئها في العصر البرونزي المتأخر ، يوضح تاريخ الجدل حول نشوء إسرائيل في فلسطين بشكل قاطع أن خطاب الدراسات التوراتية قد شكلته الصراعات السياسية المعاصرة والمتعلقة بقضية فلسطين ومستقبلها ، فالجدل المتعلق بجذور نشوء إسرائيل القديمة يصور بشكل عام وكأنه نقاش حول ثلاثة نماذج أو فرضيات أساسية وهو نقاش يرفض الاعتراف بتورطه في السياسية المعاصرة . إن البحث عن إسرائيل القديمة ليس مجرد إعادة بناء نزيهة للماضي ولكنه يتعلق بموضوع بالغ الأهمية يتصل بالهوية ، وميزان القوي المعاصرة . تبدو الفرضيات التي جاءت بها الدراسات التوراتية الألمانية والأمريكية في ظاهرها كأنها مناقشات حول طبيعة نشوء إسرائيل وجذورها التاريخية ، إلا أن هذا ليس نقاشاً بين الادعاءات المتنافسة حول الهوية التي تمكن إسرائيل من المطالبة بهذا الماضي ، والطرق المختلفة لاختلاق إسرائيل جميعها تطالب بالزمان والمكان الفلسطيني . وأن خطاب الدراسات التوراتية لم يعترف لفلسطين والفلسطينيين بأي حق في هذا الماضي .

المطالبة فلسطين (١) :

الهجرة إلي فلسطين : ـ

أدت الدراسة التي قام بها ألبرخت آلت albrec htAil بعنوان " حيازة الإسرائيلي لـلأرض فـي فلسطين landnahm nahme der Israe litenin Die palasting إلي تطوير مـا أصـبح يعـرف بنموذج التسلل Infiltration أو الهجرة immigration لفهم جذور إسرائيل ، وهو ما تم وصـفه عموماً بأنه تسلل / هجرة الإسرائيليين " السلمية " إلي فلسطين وكانت ذات تـأثير بـالغ فـي خطاب الدراسات التوراتية ، ليس فقط فيما يتعلق بإعادة صياغة تلك الفرصة ، ولكن من خلال سلسلة من الأفكار التي أُخذت علي علاتها وكأنها حقيقة ثابتة في خطاب الدراسـات التوراتيـة ،ولا تزال هذه الفرضية تتمتع بقبول كبير ، غير أن حقيقة الأمر هي أن هذه الفرضـية هـي إعادة بناء للماضي ، واختلاق لإسرائيل ، يعكس تصورات متعلقة بتاريخ فلسطين الحديث منذ العشرينات من هذا القرى ، وهي الفترة التي شهدت فلسطين ازدياد الهجرة الصهيونية إليهـا ، ويواصل الكاتب "كيث" تعليقه علي كتاب "آلت" بقوله تتمثل بصيرة آلت المبتكرة في إدراكه أن حتى تتمكن من التغلب علي أوجه القصور في التوراة العبرية فيما يتعلق بفهـم بدايـة نـشوء إسرائيل كان يتوجب عليه أن يحقق في " تاريخ التقسيمات الإقليمية للبلد بمعزل تام عن الأوجه الأخرى للمسألة " وبهذه الوسيلة كان يريد أن يفهم طبيعة استيطان الإسرائيليين في فلسطين في أواخر الفترة البرونزية المتأخرة والظروف التي سبقتها وتأثيرها في تـاريخ الاسـتيطان فـي فلسطين وعلي هذا فإن آلت اعتزم معالجة المعضلة في إطار مدة زمنية طويلـة ، باسـتخدام الكتابات المسمارية المصرية القديمة cuneiform وآثار مصرية أخري لبنـاء " الجغرافيـة السياسية لفلسطين " وقد ركزت اكتشافاته علي أهمية الدور المزعوم الذي لعبته دول – المدينة الصغيرة وأمراؤها التافهون في تحديد بلك الجغرافية السياسية ، ومن وجهة نظره أيضاً نجـم عن التطور الكامل لهذا النظام السياسي تجزئه كبري لفلسطين علي شكل دول – مدينة صغيرة لا تتعدى أرضها الأرض المحيطة بالمدينة وبعض القري المجاورة لها .

أكد "آلت" علي انه مع انهيار سلطة الحكم المصري في نهاية العصر البرونزي المتأخر ، فـإن الخارطة السياسية لفلسطين تغيرت بشكل جذري مخلفة وراءها عدداً محدوداً من دول – المدينة في المنطقة – ويفسر "آلت" ذلك بوجود تحول تام في النماذج ، أيضاً بحدوث تطورات طبيعية محلية كرد فعل علي سقوط الحكم المصري ، واخذ الكاتب "كيث" بعين الاعتبار أن بحث آلـت نفسه عن التاريخ القديم لإسرائيل كان متأثراً بالقومية الألمانية والبحث عن تاريخ الدولة القومية hationstate ، إنه ماضي متخيل ، يحمل شبهاً كبيراً بالأحداث التي شهدتها فلـسطين منـذ العشرينات وما رافقها من ازدياد الهجرة الصهيونية إلي فلسطين ، وإنشاء عـدد متزايـد مـن

المستعمرات والكيبوتسات ، والتناقض بين ازدياد "الـوعي القـومي " الـصهيوني والـشعب الفلسطيني المحلي الذي نظر إليه علي أنه غير كفء ، ومشتت وغير قادر علي عمل أي نوع من التنظيم القومي الموحد ، لقد كان لهذا التاريخ الخيالي ، الذي هو مرآة عاكـسه للأوضـاع السياسية المعاصرة التي كتب فيها آلت أبحاثه ، تأثير بالغ في خطاب الدراسـات التوراتيـة ، وعندها تبنت الدراسات التوراتيه نظريات "آلت" شاركت سلبياً في الصراع الدائر حول فلسطين وذلك بإسكات أي تاريخ فلسطيني لا يعتمد علي الرواية الإسرائيلية .

المطالبة بفلسطين (٢):

غزو فلسطين :ـ

لقد أنتجت مدارس البحث العلمي الأمريكية بقيادة "وليام أولبرايت" William Albright رواية بديلة لنشوء إسرائيل في فلسطين وقد صورها خطاب الدراسات التوراتيـة علـي أنهـا النقيض التام لرواية "آلت" ALT التي افترضت التسلل / الهجرة السلمية إلي فلسطين وقد اهتم "أولبرايت" صاحب الرواية بإظهار الأسباب " الموضوعية " لقبول الرواية التي قدمها التـراث التوراتي حول وجود غزو واحتلال خارجين . أما "أولبرايت" فقد ركز اهتمامه بشكل كبير علي المكتشفات الأثرية الحديثة لتدعيم تراث الدراسات التوراتية لاثبـات وجـود حملـة عـسكرية المفترض أنها قضت علي المجتمعات السكانية للفلسطينيين في تجمعاتهم المدنيـة ، لقـد كـان اختلاق "أولبرايت" لإسرائيل القديمة ذا تأثير بالغ الخطورة في الدراسات التوراتية فـي القـرن العشرين وبذلك يكون تفوق ديمغرافي رافق تدفق المهاجرين الصهيونيين إلي فلسطين واندماج السكان اليهود المحليين ، بينما السكان المحليون (عرب فلسطين) تمـت الـسيطرة علـيهم بواسطة " المعاهدات أو الاندماج التدريجي " وهنا لم يثر أحد قضية ما إذا كان هناك فعلاً حـق لإسرائيل في هذه الأرض . وكذلك الأمر بالنسبة لحقوق السكان الأصليين الذين جـردوا مـن ممتلكاتهم .

يقول رايت أنة ليست هناك أي ذكر لحقوق السكان الفلسطينيين الأصـليين فـي الأرض . إن حقوقهم وصوتهم ، وتاريخهم يتم استبعادها في خضم البحث المستميت عن إسرائيل القديمة فهنا لا يتعلق الحديث " بغزو " بل " بهدية " ولا بجريد السكان من أرضهم بل يتملك أرض أعطاها لهم الإله واختلق رايت تاريخ إسرائيل القديم في كتابه الشهير " علم الآثار التوراتية " biblical

Archaeology، الذي يشير فيه إلي أنة مع حصول التقدم الكبير وبالغ الدقة في علم الآثار في القرن العشرين ، أصبح من الممكن التمييز بين المدن الإسرائيلية الأولي ومدن الكنعانيين الذين لم يتمكن العبرانيون من طردهم وذلك لتتبع أثر الغزو الإسرائيلي فـي كنعـان أمـا النقطـة الجوهرية فهي الفصل بين إسرائيل والسكان الأصليين .

المطالبة بفلسطين ٣ :-

الصراع داخل فلسطين :-

يعود الفضل إلي جورج مند نهول في تحدي كثيرا من المسلمات المتضمنة في نظريـة "آلـت" "ونون" Ait&noth، "وأولبرايت" "وبرايت" bright & Albright فيما يتعلق بوجود إسرائيل القديمة علي صورة إسرائيل المعاصرة ، من خلال دراسة له بعنوان الغزو العبراني لفلـسطين The Hebrew conquest of Palestine وهزت هذه الدراسة خطاب الدراسات التوراتيـة من أساسه فيما يتعلق بجذور إسرائيل التاريخية ، وذلك لأنها هدمت نظرية الغزو والهجرة ، إلا أن هذا الرأي أصبح سائدا مضلل بدورة ، لأن نظريات "مند نهول" نفسه كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بآراء "أولبرايت" الأساسية ولم تخرج عن نطاق الدراسات التوراتية بل كانت سجينة لهـذا الخطاب الذي كان هدمة البحث عن إسرائيل القديمة باعتبارها منبع الحضارة الغربية ، والـذي اختلاق إسرائيل بالفعل علي صورة الغرب مما ساهم في إسكات التاريخ الفلسطيني ، إن المفارقة في أعمال "مندنهول" تكمن في أن هناك جوانب مهمة في أعماله تضفي شرعية علي التـاريخ الفلسطيني وتجعل له صوتا ، إلا أن هذا الصوت سرعان ما يتم التراجع عنة أو يستبعد بحكـم ادعاءات المسيحية بامتلاك الحقيقة .

وكان من أحد أهداف "مندنهول" المعلنة في ضوء الجدل ما بعد الحداثة كـان " تجنـب أسـوأ الأخطاء وهو إسقاط الأفكار الحديثة علي العالم القديم مفهوم القومية شأنه شأن العنصرية ، هو من الناحية العلمية مفهوم لا وجود له في التاريخ القديم " فنظريات كل من "آلت" "وأولبرايـت" استندت إلي فرضيات خاطئة في جوهرها وهي أن إسرائيل كانـت مجتمعـا قبليـا ، شـبيهاً بالمجتمع البدوي في القرنين التاسع عشر والعشرين وهو ما يطلق علية "مند نهول" " الـسراب البدوي " The momadic mirage ، ويجادل "مندنهول" بأنه لم يكن أي إدراك كاف للتعصب الاجتماعي والسياسي الذي اتسم به الباحثون المشتغلون في إعادة بناء تاريخ إسرائيل القـديم ،

وقد رفض "مندنهول" النظرة التطورية التي تحكمت في خطاب الدراسات التوراتية وذلك عـن طريق رفض نمط من التطور يدعي الارتقاء من حالة البداوة إلي سكني القرى ثم المدن

بالإضافة إلي ذلك ركز "مندنهول" علي الفساد الكامن للثقافة المحلية بشكل قـوي جـدا ، وقـد أظهر تضادا حادا بين الأخلاق التي جاءت بها عقيدة التوحيد التي أتت مـن خـارج فلـسطين بواسطة إسرائيل إن تأكيد "مندنهول" لخصوصية إسرائيل المبنية علي عقيدتها التي هي أسـاس الحضارة الغربية ، يدعم الافتراض الشائع بوجود انفصال بين إسرائيل والثقافة المحليـة فـي فلسطين وهذا التأكيد يعكس الافتراض الشائع بوجود استمرارية متصلة بين إسـرائيل القديمـة والعالم الغربي الحديث ، فنظرية "مندنهول" تؤدي إلي فهم لوجود فصل بين إسرائيل ومحيطها " الكنعاني " حيث أن نظريته التي تفترض حدوث الثورة المحلية لا تؤدي إلي فهم وتقدير أكبـر للثقافة المحلية ولتاريخ فلسطين ، بل إن هذه النظرية تسهم بدرجة مماثلة في إسـكات التـاريخ الفلسطيني .

أما اختلافه الجذري للنظريات الأخرى فتتمثل في فكرة أن الأرض هي ملك إلهي وعلي هـذا فهي هدية إلهية وعلي هذا يكون فقدان الأرض الفلسطينية لمصلحة الهيمنة الإسرائيلية يـصبح شيئا مبررا ، وفي سياق كون الأرض هدية إلهية لإسرائيل أما السكان الأصـليون وثقـافتهم اللاأخلاقية والفاسدة فهم في نظر "مندنهول" فروقاً إضافية بين إسرائيل وكنعان لها صدي كبير في الخطاب التوراتي المعاصر لتبرير وإضفاء الشرعية علي دولة إسرائيل الحديثة في مقابـل فشل سكان فلسطين الأصليين .

ويقول "كيث" بأن تركيز "مندنهول" علي الثورة الفلاحية كان شيئا عرضيا وتحديدا غير موفـق قد ألقي في أحيان كثيرة ظلالا من الغموض علي التمييز الجذري الذي أقامـه بـين إسـرائيل والثقافة المحلية

ويعلق "كيث" علي تمييز "مندنهول" الجذري بين العقيـدة الإسـرائيلية والأنظمـة الاجتماعيـة السياسية المنحطة والفاسدة التي تحكم سكان فلسطين الأصليين ، أنه يعكس تصوير إسرائيل في العصر الحالي علي أنها تطور جديد وجذري في المنطقة فجذور إسرائيل ترجع إلي الحـضارة الأوربية والديمقراطية التي استطاعت أن تستغل هذه الأرض التي تركهـا الـسكان المحليـون المنقسمون علي أنفسهم والكسالى مهملة ردحا طويلا من الزمان .

ويعتبر "كيث" أن كثير أوجه تحليل "مندنهول" غرابة هو إثارته الأسئلة حول وحـدة إسـرائيل الاثنية " العرقية " فيما يتعلق بعلاقتها مع كنعان ، فالأغلبية الساحقة " لإسرائيل " كانت في نظر

"مندنهول" مجموعات محلية وأشخاصا رفضوا الأنظمة الاجتماعية والسياسية لكنعان في العصر البرونزي المتأخر، وهذا كله ينبغي أن يوفر الأساس للإفصاح عن التاريخ الفلسطيني القـائم بذاته ومع ذلك "فمندنهول" فرض نموذجا تطوريا أقوي للتطور الديني ، مما أدي إلي إسـكات التاريخ الفلسطيني بشكل لا يقل فعالية عن ماضية .

لقد أُدينت الديانة والثقافة المحلية علي نحو قوي جداً ، ورفضت علي أنهـا " وثنيـة العـصر البرونزي المتأخر " ورفض خطاب الدراسات التوراتية الاعتراف بأن الديانة المحلية تتمتع بأي شرعية ، أما زعم الديانتين اليهودية والمسيحية اللتين تمثلان جذور الحضارة الغربية بامتلاكهما الحقيقة فقد تم قبوله بلا تفكير بقدر ما صورت الأنظمة الدينية الفلسطينية علي أنها لا أخلاقيـة وفاسدة .

إن اختلاق "مندنهول" لإسرائيل القديمة يمكن مقارنته مع تطلعـات المهـاجرين الـصهيونيين الأوائـ ـ ـ ـل إلـ ـ ـ ـي إنـ ـ ـ ـشاء " مجتمـ ـ ـ ـ ـع جديـ ـ ـ ـ ـد وعـ ـ ـ ـادل ".

أما الثورة التوراتية وهي حجر الأساس للحضارة الغربية ، فهي التي تحل محل النظام الـوثني الفاسق ، والذي يثير الاهتمام أنه علي الرغم من اعتبار السكان المحليين عـاملاً مهمـاً مـن الوجهة العددية في تدمير المراكز الحضرية في فلسطين في أواخر العصر البرونـزي .فـإن الحركة الدينية التي تجعل هذا ممكناً قد أتت من الخارج ، فقد أتت بها مجموعة صـغيرة مـن الإسرائيليين الفارين من فرعون مصر . أما العامل الذي يسهم بحـق فـي تمـدين المجتمـع الفلسطيني وتحويله فإنه نظام ديني آت من خارج فلسطين .

ويقول "كيث" بأن "مندنهول" يشدد علي " عناصر الاستمرار الشكلية المجرده مع الحـضارات قبل اليهودية (الكنعانية) والأناضولية والتي كانت السمة المميزة للمشهد الفلسطيني " ولكن هذا قبل مرحلة " التوحيد الاجتماعي والديني " والتركيز هنا هو علي حقيقة أن هذا التوحيـد كـان نتيجة العامل الخارجي فقط ، وهذا شيء لم يكن بإمكان السكان والأنظمة المحلية التـي تـصل إليه دون توجيه خارجي . فمندنهول بدلاً من أن يهز الخطاب التوراتي من أساسه ، ويعطـي صوتاً للتاريخ الفلسطيني، يختلق إسرائيل قديمة تستمر في إنكـار قيمـة المجتمـع والتـاريخ الفلسطيني .

ويعتبر كيث أن أهم شيء يجب أن يطرح أسئلة بذاته ولإثارته لتطوير التاريخ الفلسطيني هـو طرح أسئلة حول الربط السببي بين المستوطنات في المرتفعات وانهيار التجمعات الحضرية .

وعلي الرغم من أن استنتاجات مندنهول مرتبطة تماماً بمـشروعه اللاهـوتي ، فـإن تحليلـه للمعلومات الأثرية يمد بنقطة بداية مهمة جداً لتاريخ فلسطين القديم بوصفه دراسة للعوامل التي أدت إلي حدوث التغيرات الاجتماعية في المنطقة ، وإذا تم ترك الخلافات المتعلقة بالبحث عن إسرائيل القديمة وانصب الاهتمام علي محاولة تفسير العوامل المتعلقـة بـالثورات الـسياسية والاجتماعية في فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديـدي ، ومـا رافقها من تحول الاستيطان فإن تحليلات "مندنهول" تصبح جديرة بالاهتمام والقبول .

وبذلك تتحول بؤرة الاهتمام إلي محاولة فهم العوامل التي أسهمت في التحول الاسـتيطاني settlement shift
وما رافقه من انحطاط اقتصادي في المنطقة في نهاية العصر البرونزي المتـأخر ،هـذا هـو التوجه الذي يبشر بتحقيق دراسة التاريخ الفلسطيني كموضوع قائم بذاته بـدلاً مـن أن يكـون مجرد خلفية للبحث عن إسرائيل القديمة بدافع ديني وسياسي ، لقد تجاهل "منـدنهول" خطـاب الدراسات التوراتية في بحثه المتواصل والبائس عن إسرائيل القديمة المعلومات المتراكمة من الحفريات وأعمال المسح الأثرية ، التي تعطي صوتاً للتاريخ الفلسطيني ويتجـه الكاتـب إلـي نورمان غوتفالد Norman Cottwald

ويقول بأنه طور العديد من أفكار "مندنهول" الأساسية ونوضعها في قالب سياسي واضح فيمـا يتعلق بجذور إسرائيل المبكرة وذلك في عمله " قبائل يهون ، دراسـة سوسـيولوجية لـديانات إسـرائيل المحـررة " The Trides of yahweh Asociology of The Religions liderated I srael .

يتضح أن غوتفالد كان مدركاً تماماً لدور المؤثرات الذاتية في السياسة المعاصرة فـي تـشكيل تاريخ إسرائيل القديم وهدفه المعلق هو النظر إلي الدين اليهودي علي أنه جـزء مـن النظـام الاجتماعي الكلي وذلك من خلال حشد أوثق المعلومات حول نشوء إسـرائيل ، كمـا حـددتها المناهج المعترف بها في العلم التوراتي " .

ويري الكاتب أن غوتفالد لا يذكر أبداً الكفاح الفلسطيني لتقرير المصير وفي واحد مـن أكثـر أعمال الدراسات التوراتية جذرية وإثارة للجدل في القرن العشرين تظل مسألة فلـسطين غيـر مصرح بها .

إلا أن سيلبرمان ، الذي اعتاد إعادة بناء الماضي بشكل مسيس ، لا يبذل أي جهد للربط بـين هذه النظرية حول جذور إسرائيل وبين أكثر حركات التحرر الوطني وضوحاً ، وهـي كفـاح الفلسطينيين ضد الاحتلال الإسرائيلي .

وتظل المشكلة غير مصرح بها لأن خطاب الدراسات التوراتية المهيمن قد أسكت تماماً وبشكل محكم أي فكرة لوجود تاريخ فلسطيني أو حتى أي تعبير عن تقرير المصير ، وعلي الرغم من أن غوتفالد في نقده الجذري وسيلبرمان في اعترافه الإطار السياسي الأوسع لحضرة الفرضـية يدركان ارتباط هذه المسألة بحركات الكفاح الأخرى للتحرر الوطني ، فإنهما لا يتمكنـان مـن استخلاص النتائج المترتبة علي إعادة بناء الماضي بهذه الطريقة مـن حيـث فهـم الـصراع الفلسطيني المعاصر من أجل تقرير المصير.

يتحاشى "غوتفالد" الفكرة المحورية القائلة بخصوصية إسرائيل القديمة والتي كانت أساسية فـي استبعاد التاريخ الفلسطيني من الخطاب الأكاديمي فإنه يشير إلي إسرائيل بوصفها تحولاً تاريخياً جذرياً ، كما أنه يندد بالتخصص الزائد للدراسات التوراتية لأنه أدي إلـي العجـز عـن فهـم إسرائيل علي أنها نظام اجتماعي متكامل والذي يرده إلي عوامل عقلية وثقافيـة واجتماعيـة ، فتحليل غوتفالد يمثل هجوماً قوياً علي النفوذ المستبد الذي مارسه اللاهوت في دراسة التـاريخ الإسرائيلي كما أنه في الوقت ذاته ينبغي علي الدراسات التوراتية إخفائها فـي البحـث عـن العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أثرت فيها وتحديد معالمها إن المفتاح والعامـل الأساسي بالنسبة لغوتفالد هو " الهوية الاجتماعية الطبقية للباحث التوراتي " فموقـع البـاحثين التوراتين ضمن طبقة وسطي رأسمالية تتبنى مثل النـزعة الإنسانية في البحـث العلمـي قـد أفضي إلي رؤية للمجتمع استبعدت العديد من أعضائه ويعترف "غوتفالـد" بعـدم موضـوعية خطاب الدراسات التوراتية ومحدودتيه ،إلا أنه لا يواصل مسيرته بحيث يكشف عـن الطريقـة التي أدت بها سيطرة اللاهوت إلي الحد من دراسة تاريخ فلسطين القديم فهو لا ينظر إلي عـدم موضوعية الخطاب التوراتي إلا علي أنه عائق يحول دون فهم أوضح لتاريخ إسرائيل القديم . ينصب تركيزه علي المجتمع الإسرائيلي وبالأخص علي دور الدين في المجتمـع الإسـرائيلي ويظل متمسكاً بقوة ذلك الخطاب الذي أسكت التاريخ الفلسطيني .

فهذه الآراء تبدو وكأنها وصف للصهيونية المبكرة حينما أتي اليهود من بلدان أوروبية مختلفة ، أوفي فترة لاحقة ، من أمريكا وروسيا وإثيوبيا وغيرها من المناطق ، " وهم متنوعون عرقيـاً وثقافياً ثم انصهروا معاً كأمة عصرية في " حياة مشتركة من الدفاع والتطور الذاتي "

ويبلغ التركيز علي إسرائيل حداً من القوة يؤدي إلي تبديد أي شك في أن هـذه الأرض هـي " أرض إسرائيل " أما مسألة حق الشعوب المحلية في تلك الأرض أو حقها فـي التـاريخ فهـي مسألة لا يثيرها أحد ، وهذا شئ مثير للدهشة .

الفصل الرابع

إنشاء دولة إسرائيلية

* إنشاء دولة - المطالبة بالماضي :-

إن البحث المزمن عن إسرائيل القديمة، وتحديد موقعها في الفترة الانتقالية الواقعة بين أواخـر العصر البورنزي - وأوائل العصر الحديدي ، لا يمدنا في النهاية إلا بإحدى اللحظات الحاسمة في تاريخ فلسطين وكان إنشاد دولة يهودية هو اللحظة الحاسمة في تاريخ المنطقة بالنسبة للدراسات التوراتية، فهي تكتسب أهمية خاصة تعود إلى فترة ما يعرف بنشوء دولة إسرائيل في فترة الانتقال من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي.

إن إنشاء تلك الدولة لا يدل فقط على تحقيق أعلى درجات التطور السياسي ولكنه يميز إسرائيل عن غيرها باعتبارها دولة مستقلة وذات سيادة لا تخضع للسيطرة الاستعمارية.

إن دولة إسرائيل الحديثة ترجع مطالبتها التاريخية والطبيعية إلى دولة العصر الحديدي تلك فقد أشار إعلان الاستقلال لدولة إسرائيل الحديثة الذي أصدره مجلس الأمة المؤقت في تل أبيب في ١٤ مايو ١٩٤٨ أشار إلى "إعادة بناء الدولة اليهودية".

"re-establishment of the Jewish state"

يقول لاكيروربين أن الحق في امتلاك الأرض على أساس السابقة التاريخيـة historic precedent بوجود دولة إسرائيلية مستقلة وذات سيادة في المنطقة، هذه الدولة تدعي الحـق فـي الأرض باعتبار أن هذا هو التعبير النهائي عن التطور السياسي، وهو يلغي ويتجاوز كل نوع آخر مـن التنظيم السياسي في المنطقة وهي التنظيمات التي ينظر إليها في نهاية المطاف على أنها أحـط أما المعني الضمني من وراء هذا الادعاء فهو انه في الفترة المعاصرة، جلـب المـستوطنون اليهود "نعمة التقدم لكل السكان"، قبيل إنشاء الدولة القومية وتتسرب تلك الادعـاءات الـضمنية والصريحة نفسها إلى العديد من تصورات هذا الماضي المتخيل حول نشوء دولة إسرائيل فـي فلسطين، وينتشر هذا الادعاء الصريح بامتلاك او استرداد الأرض، على أساس تلـك الـسابقة التاريخية ، على نطاق واسع وقد سيطر طويلا على المفاهيم السياسية والشعبية المتعلقة بدولـة إسرائيل الحديثة وحقها في الأرض ففي مذكرة كتبها اللورد "بلفور" بعد سنين من إعلانه للوعد الشهير عام ١٩١٦، ذلك الوعد التي تعهدت فيه الحكومة البريطانية بتأييد إنشاء "وطن قـومي

لليهود في فلسطين" تتجسد مثل هذه المزاعم في الإشـارات المتكـررة إلـي أرض إسـرائيل التاريخية" في أيامنا هذه فقط، كما أن إعلان الاستقلال الإسرائيلي لعام ١٩٤٨ يشير إلي إعـادة انتشار الدولة اليهودية"وهذا التعبير إعادة لصياغة وعد بلفور الذي أعلن قبل واحد وثلاثين عام من إنشاء الدولة، ذلك الوعد الذي تحدث عن"إنشاء وطن قومي لليهود في فلـسطين" ويتجلـى اهتمام حاييم وايزمن البالغ بالاصطلاحات واعادة صياغتها في إعلان الاستقلال الـذي يعبـر بصراحة عن"الحق" في إنشاء دولة يهودية لا مجرد وطن قومي، وذلك على أسـاس الـسابقة التاريخية، وعلى هذا الأساس، فان

دولة إسرائيل المعاصرة ما هي إلا إعادة بناء re-establishment لما كان موجوداً في الماضي"

ويدل سياق المطالبة والمطالبة المضادة بحق امتلاك الأرض على أن الدراسات التوراتية، في اختلاقها لدولة إسرائيل قديمة، متورطة في الصراع الحالي الدائر حول هـذه الأرض وهكـذا سيطر الصراع الصهيوني للحصول على دولة مستقلة ذات سيادة على تاريخ المنطقـة خـلال معظم القرن الحالي أما المسالة التي لم تعر اهتماما كافيا فهي: إلى أي مدى اثر هذا الـصراع المعاصر الدائر حول فلسطين في فهم التاريخ القديم وتصوره.

وعلى الرغم من أن الأطماع الصهيونية لم تتحقق إلا في عام ١٩٤٨ مع قيام دولـة إسـرائيل الحديثة، فان الأحداث التي حصلت منذ بداية هذا القرن تركت آثارا لا تمحي في عقول الباحثين التوراتيين في مخيلتهم، حيث كانوا في خيالهم صورة من الماضي المتعلقة بمملكة داود وكأنـه العصر الذهبي للتاريخ الإسرائيلي، إذا كانت الأمم عبارة عن سرد للتاريخ إذن يكون سر د هذا التاريخ مرتبطا بشكل وثيق بحقائق الحاضر، ويؤدي إلى استبعاد أي تمثيليات أخرى محتملـة للماضي أو أي تصور مختلف له.

إن الباحثين التوراتيين وكذلك علماء الآثار قد بحثوا عن دولة كبرى في هذا العصر الحديـدي قوية وذات سيادة مستقلة ومؤسسها الملك داود، وتصوروا أن هذه الدولة قد وجدت بالفعل وقـد هيمنت تلك الحقيقة المزعومة وأسهمت اكثر من أي شيء آخر في إسكات التاريخ الفلـسطيني، وكانت عقبة في وجه أي روايات أخرى بديلة للماضي.

إن فلسطين كانت عرضة للسيطرة الخارجية في معظم فترات تاريخها، وهذه حقيقة تعترف بها معظم الروايات حول تاريخ المنطقة، إلا أن معظم المؤرخين التـوراتيين يعتبـرون أن فتـرة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي هي الاستثناء من هذه القاعـدة، وهي الفترة نفسها التي شهدت انهيار الإمبراطوريات الميسينية mycenaea فالمـصرية القديمـة

والحثية hi ttile، كما شهدت ما يعرف "بنشوء إسرائيل" وينظر إلى عام ١٢٠٠ ق.م علـى انـه الخط الفاصل في تاريخ المنطقة، ومؤشر على الانحطاط الكبير ثـم الغيـاب اللافـت للنظـر للسيطرة الإمبريالية، والمهم هو أن هذه الفترة تقدم على أنها حد فاصل، وعلى أنها الفترة التي شهدت نشوء الكيان المتقبل" إسرائيل" في التاريخ الفلسطيني .

*** تخيل دولة إسرائيلية قديمة :-**

يعد كتاب "آلت" Alt الرائد عن مملكة اسرائيل، بمنزلة النظرية المعتمدة حـول تكـوين دولـة إسرائيلية في فلسطين هذه الدولة التي حددت ولا تزال تحدد إطار دراسة التاريخ في تلك الفترة، فالافتراض الأساسي هو أن تاريخ المنقطة يجب أن يفهم في سياق الكيانات القومية.

إن الادعاء بأنه لايمكن فهم التاريخ الفلسطيني اللاحق إلا من خلال هذا الموقع المركزي يؤكـد أن هذه هي الفترة الفاصلة في تاريخ المنطقة فان الصراع ، هو صراع بين التعبير عن الوعي القومي الإسرائيلي وبين الفلستين إلا انه لا علاقة للفلستين بهذه اللحظة الحاسمة، فهـذا الحـق تحتفظ به إسرائيل لنفسها إما إحقاق للفلستين فيعزى إلى انه يتم إقرانهم بالبنى السياسية المحلية .

ويذكر الكاتب أن فكرة "آلت" هي أن الإسرائيليين لم يسيطروا فقط على تلـك الأرض الخاليـة وإنما ظلوا منعزلين، فلم يواجهوا المصير نفسه الذي واجهه الفلستيون الذين هبطوا إلى مستوى النظام الكنعاني الأصلي.

ويذكر الكاتب أن "آلت" كتب كل ذلك قبل إنشاء دولة إسرائيل الحديثة بوقت طويل نسبيا، إلا أن السياق الذي عمل فيه ليس عاملاً ثانوياً في تحديد فهمه للماضي.

أما المبدأ الذي اهتدى به فهو أن دولة أو المدينة هي التـي تحـدد التـاريخ، وهكـذا العامـل الجوهري في تاريخ إسرائيل المتخيل، ذلك التاريخ الذي كان ينتجه الصراع من اجـل توحيـد ألمانيا، وقد دعمه الصراع الذي كان دائرة حول فلسطين.

ويعتبر الكاتب أن النغمة الأساسية للوعي القومي وتحديد المصير هي التي تهيمن على جميـع أعمال آلت alt

كما أن آلت alt يؤكد أن ماضي إسرائيل البدوي كان ينطوي على بعض الوظائف الأوليـة ذات الطبيعة القومية"ويقول أن استيطان الإسرائيليين في بلد متحضر قد جعل تطوير تلك الوظـائف القومية شيئا حتميا بشكل شبه مؤكد، وهذا يتيح فرصة إجراء مقارنة طريفة مع دراسات اقرب عهدا حول إنشاء الدول تلك الدراسات التي تركز على أن الوصول إلى وضع الدولـة statehood

ليس شيئا حتميا بأي حال، مع ذلك نجد أن وصول إسرائيل إلى الدولة هو شيء شبه حتمي في نظر اولبرايت albriright وعدد من المؤرخين كما أن آلت alt لا يقدم أي تفسير لحتمية وصـول إسرائيل إلى تكوين دولة، فيما عدا تأكيد حتميتها، ولكنه يؤكد أن التهديد الفلستي هـو العامـل الحاسم الذي دفع إسرائيل نحو تكوين دولة.

كما يعتبر الكاتب أن آلت alt تصور وركز على إنشاء "دولة-قومية" إسرائيلية ويشير إلي هذه الدولة المزعومة على أنها "دولة قومية" national state موحدة ويركز على أنهـا "دولـة قوميـة" ويستمد هذا الادعاء بامتلاك في الأرض تدعيما له أي " الحق التاريخي".

وكذلك فكرته التي كان لها تأثير مماثل هي رأيه القائل :

إن الدولة الإسرائيلية قد أسست لأغراض دفاعية فقط ، أي أنها كانت محاولة للوقوف في وجه التهديد العسكري الفلسطيني يقول الكاتب أن وهم الطبيعة الدفاعية لإسرائيل هو فكرة متغلغلـة في خطاب الدراسات التوراتية برمته فيما يتعلق بطبيعة الدولة الإسرائيلية ، وهذه الدولة تحاكي عن قرب الادعاءات الصهيونية والتبريرات الاعتذارية اللاحقة بعيد إنشاء دولة إسرائيل الحديثة ، فكثيرا ما توصف دولة إسرائيل الحديثة بأنها دولة دفاعية بطبيعتها ، وتلك النظرة يعبر عنها "إعلان الاستقلال prodamation of independence

الذي جاء فيه " لقد سعوا للسلام ، ولكنهم في الوقت نفسه استعدوا للدفاع عن أنفسهم "

ويقول الكاتب بأن ألت Alt استبعد لأن تكون إسرائيل قد تأثرت بالمدن الكنعانية بل أنها علـي العكس من ذلك ، قد تأثرت بشكل أقوي بكثير بما وصفة آلت Alt "بالأسس القومية "

إن ثقل الدراسات التوراتية يؤدي إلي تصور ماضي ملتزم بادعاءات الدولة الحديثـة، هـذا الإسكات للتاريخ الفلسطيني هو نتاج للسياق الاجتماعي والسياسي الذي جاءت فيه مثـل هـذه الأعمال المرتبطة بالتاريخ الأوروبي، وفرض نموذج الدولة الأوروبية القومية علـى الـشرق الأدنى القديم. وذلك النموذج الذي أكدته أوروبا وتبناه الغرب في دعمه لدولة إسرائيل الحديثة- وهو يشكل جزءاً مهما من الكتابات التاريخية الشعبية التي قدمت للعامة رؤية متجانسة تمامـا للماضي، أما التاريخ الفلسطيني فلا حق له في الماضي لأنه غير موجود أساسا إذ انه اسـتبعد في خطاب الدراسات التوراتية.

ويقر الكاتب بأنه يمكن المجادلة بان كتاب آلستروم ahlstron بعنوان تاريخ فلسطين القديم إذ يبدو وكأنه يوجد بالفعل صوت للتاريخ في مقابل هيمنة إمبراطورية داود هذا الكتاب يثير بـصراحة

التساؤلات حول تاريخية النصوص التي تعالج موضوع الوجود التاريخي لمملكة داود وأنها مكتوبة من منظور داودي .

ويقول الكاتب بأن السمة التي تميز أعماله هي تقييم لشاؤول اكثر إيجابية من الأعمال التقليدية حول إسرائيل والمرتبطة بشكل وثيق بالروايات التي يقدمها التراث التوراتي.

ويقول الكاتب بأنه يصعب تمييز وصف آلستروم عن روايات "التواريخ التوراتية"التقليدية، على الرغم من ادعائه انه يسرد تاريخ فلسطين القديمة وكما هي الحال مع التواريخ التقليدية لإسرائيل ويهودا ، فان تاريخ فلسطين لا يعدو كونه تاريخا لإسرائيل كما يصوره التراث التوراتي.

*** التشكيك في الدولة الإسرائيلية:-**

يقول الكاتب أن كتاب ملير وهيز haye & miller يمثل قمة "الكتابات التاريخية التوراتية" الحديثة، فهما يسلمان بان محاولتهما لفهم فترة حكم شاؤول تخمينية إلى حد بعيد، كما أن موقفهما عن النص التوراتي نقدي اكثر من غيره من الدراسات، وهما يثيران الأسئلة حول الصدقية التاريخية للروايات المتعلقة بداود إلى درجة اكبر بكثير من سوغن noggin أو أي من "الكتابات التاريخية التوراتية" الرسمية.

ويعتبر الكاتب أن ميلر وهيز يكشف عن وجوه اختلافات مهمة مع المعتقدات الأكاديمية العامة التي ترى أن هذه الفترة من التاريخ في المنطقة هي فترة حاسمة.

ويعتبر الكاتب أن ميلر وهيز يشككان في المفهوم القائل: أن حكم سليمان كان"عصراً ذهبيا"، وعلى الرغم من ملاحظتهما أن الدلائل الأثرية في حازور hazor ومجدو(تل المتسلم)megiddo وجازر(تل الجزر) gezer تدل على أن سليمان كانت له أعمال في مجال تشييد المباني، فانهما يجعلان هذا الحكم مشروطا، إذ يصفان تلك المنجزات بأنها"متواضعة إلى حد ما ، إذا ما قورنت بمباني بلاد ما بين النهرين ومصر الفرعونية ، بل هي إذا ما قورنت بمباني عمري omrides ويصف ميلر وهيز مملكة سليمان بأنها مكونة في مجملها من فلسطين الغربية وجزء كبير من شمال شرق الاردن، ولكنهما يستثنيان الجزء الأكبر من ساحل البحر المتوسط الذي كان تحت سيطرة الفلستيين والفينيقيين وعلى الرغم من تأكيدهما لأهمية حكم كل من داود وسليمان فانهما اكثر اعتدالا بكثير من العديد من الادعاءات المفرطة، فما يحاولان الترويج لرواية بديلة لتاريخ فلسطين فهذا ليس من أهدافها ، لكنهما على الأقل يسلمان بان إسرائيل التي حكمها داود لم تكن الكيان الوحيد في المنطقة، وإذ ليعترفان باحتمال وجود روايات أخرى بديلة

للماضي ، فان سيطر الفلستين والفينيقيين من على الجزء الأكبر من ساحل البحـر المتوسـط تصبح شيئا مفهوما ضمنيا على اقل تقدير، كما يعتبر الكاتب أن دراسة مندنهول من الدراسات المتميزة حول المملكة الإسرائيلية، وكذلك في بحث أصول إسرائيل، يوحي مند نهول بأن مملكة داود كانت اندماجا معقدا بين "الثقافات الكنعانية وثقافة شـمال سـورية والأناضـول والثقافـة السورية الشرقية في العصر البرونزي"، مع بعض الملامح المشتقة من الحضارة المصرية.

لقد ظهرت مجموعة أعمال جديدة في الثمانينات وهذه الأعمال حاولت أن تعيد النظر في فكـرة بداية الدولة الإسرائيلية، ومعظم هذه الأعمال استعانت بما تقول به دراسات العلوم الاجتماعيـة حول موضوع تكوين الدولة (كوهين وسيرفس Cohen & service، كلا سـن وسـكالنك claessen & skalnik، هاس haas) وقد حاول هؤلاء تطبيق تلك المعطيات على المعلومات الجزئية المتـوافرة لفهم الانتقال إلى الدولة في إسرائيل القديمة، وبالأخص أثاروا شكوكاً حول الصدقية التاريخيـة للتراث التوراتي، وفكرة أن النظام الملكي غريب عن إسـرائيل أو أنـه كـان شـيئا لا مفـر منه،ونظرية أن التهديد الفلستي كان سببا كافيا لتفسير الوصول إلى وضع دولة.

ويقول الكاتب بأن كل من هاور (hauer) وكوت ووايتلام coote & whitelam استعان من أجل فهـم التطورات التي أدت إلى انتقال الإسرائيليين إلى وضع الدولة بنظريـة كـارينروcarneiro التـي ترتكز على ضغط الظروف البيئية والاجتماعية، أما التهديد الفلستي فينظر إليه على أنه لا يعدو أن يكون عاملا حافزا لتكوين الدولة وبناء على ما جاء في بحث كوت ووايتلام كانت العوامـل الاجتماعية والبيئية في منطقة التلال هي التي أدت إلى تراكم الضغوط التـي أبطلـت مفعـول الاتجاهات الطبيعية إلى الانشقاق لدى الدويلات الأصغر وإلى ازدياد المركزية وبالنتيجة النهائية إلى نشوء دولة إسرائيلية وهم يؤكدون حدوث عملية معقدة تتفاعل فيها أنواع شتى من التنظيم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والديني، في مقابل التفسيرات التقليدية التـي نظـرت إلـى الفلستي على أنه السبب الرئيسي في الوصول إلى بناء الدولة وبذلك ينتهي وايتلام إلى أن ضيق المجال الاجتماعي والجغرافي في المرتفعات الفلسطينية هو الذي فرض قيـوداً كبيـرة علـى التوسع، مما زاد من التنافس على الأرض المتاحة.

ويرجع الكاتب بالقول بأن الآليات التي أدت في نهاية المطاف إلى تكوين دولة بـدأت تمـارس عملها عندما أخذت المناطق الريفية المتفرقة في التوسع والازدياد. ويقول : "بأنه ينبغي الإشارة بشكل خاص إلى أن طبيعة أساليب الفلاحة، التي كانت تعمل مع"سلسلة" أراضـى المرتفعـات terracing وزرع الأشجار ذات المنافع التجارية، كانت تتطلب ثباتاً في أساليب المعيشة " ، هـذا

الالتزام بالتكيف مع ضغوط بيئية واجتماعية متزايدة، كان من المؤكد عاملاً مهما في الوصول إلى المركزية.

يؤكد الكاتب على أن استنتاجات كوت وايتلام تبين إلى أي مدى أدى البحـث عـن إسـرائيل القديمة إلى صرف انتباههما بعمليات التغير التاريخي في دراسـتهما لتـاريخ فلـسطين إلا أن الاهتمام الأول ظل البحث عن إسرائيل القديمة وتحديد موقعها يفترض-بنـاء علـى خطـاب الدراسات التوراتية- أن إسرائيل تحدد هويتها بالمستوطنات في منطقة التلال في بداية العـصر الحديدي وعلى هذا الأساس يمكن اقتفاء اثر الدولة الإسرائيلية.

ويقول الكاتب في أن رد فينكلشتاين Finkelstein على مراجعات كل من كوت ووايتلام لنظريـة نشوء مملكة اسرائيل، فهو يعيد فرض نظريات خطاب الدراسات التوراتيـة المهـيمن، يقـول الكاتب بأنه على الرغم من محاولته فهم مغزى المعلومات الأثرية الجديدة فان الفقرة الافتتاحية من دراسته تدل على فهم لتطور الدولة الإسرائيلية يقف بصلابة ضـمن خطـاب الدراسـات التوراتية ". وهكذا تتنقل صورة الدولة القومية الأوروبية إلى فلسطين.

*** تحديد إمبراطورية داود:-**

في السنوات الأخيرة بدا الإجماع على فكرة وجود مملكة داود يتداعى تدريجياً وان كانت هـذه الفكرة لا تزال تهيمن على خطاب الدراسات التوراتية، فقد ساعدت بعـض الدراسـات التـي أعادت النظر في فترة تكوين المملكة على إيجاد مناخ نقدي إلا أنها تتمكن من القيام بنقد جذري متواصل لخطاب الدراسات التوراتية المهيمنة.

وقد بدأ التصور المهيمن للماضي في التصدع نتيجة مجموعة العوامل نفسها التـي أدت إلـى إعادة النظر في فكرة"نشوء" إسرائيل ولم تطبق النتائج المتضمنة في هذه الدراسـات الـسابقة المتعلقة بمسألة "نشوء" إسرائيل على دراسة المملكة الإسرائيلية في بداية العصر الحديـدي إلا ببطء.

ويعتبر الكاتب أن مناقشة كل من ميللر وهيزmiller & hays على أن مجموعة العوامل التي تحدث التصورات المهيمنة على الماضي فيما يتعلق بنشوء إسرائيل قد بدأت في منتصف الثمانينـات تزعزع تصور إمبراطورية إسرائيلية هيمنت على فلسطين في العصر الحديـدي، ولقـد كـان العامل الحاسم هو التقلبات التي طرأت على الاتجاهات الأدبية إزاء التـوراة العبريـة، وهـي الاتجاهات التي قللت في البداية من شأن الفرضيات التاريخية النقدية بشأن فترة نشوء إسرائيل

وإلى درجة اقل عادت تقيم المعلومات الأثرية، وقد حدث التحول في الرؤى المتعلقـة بنـشوء إسرائيل نتيجة التقاء هذه الاتجاهات الأدبية الحديثة مع الاكتشافات الأثرية الجديدة.

يقول الكاتب بأن المؤرخ أرنولد Arnold قدم تقييما الكثر رزانة من غيره فيما يتعلق بإمبراطورية داود واستنتج انه بناء على تقارير التنقيبات الأثرية فان : "تل الفول كـان لهـا فـي العـصر الحديدي الأول "برج للمراقبة ذو سمات فلسطينية مميزة، وعدد قليل من المباني البعيدة" ويعتبره الكاتب استنتاج يختلف اختلافا لافتا للنظر عن ادعاءات بعض"التواريخ التوراتية"والتـصريحات الواثقة حول وجود دولة مبكرة حكمها شاؤول وبالمثل فإن"إمبراطورية" داود المزعومـة كمـا صورها "نوث Noth" لم تترك أي آثار مادية تذكر نقب عنهـا وحـدد مواقعهـا علمـاء آثـار محترفون.

وأنه كان يوجد كتاباً موجزاً يتسم بالتحفظ أشار إلى انه على الرغم من أن التوراة تقـول داود حكم لمدة أربعين سنة "فان ما يدعو إلى السخرية ألا يوجد إلا آثارا ضئيلة في فترة داود كما لا توجد أي مبان أثرية ترجع إلى هذه الفترة.

ويؤكد الكاتب أن الباحثين التوراتيين وعلماء الآثار كانوا مدركين منذ مدة طويلة لمسالة الأدلـة الاثرية، ولكنهم أصروا مع ذلك على تصور الصرح الهائل لإمبراطورية داود على انه يمثـل إحدى القوى العظمى في العالم القديم ومن هنا تجاهلت الدراسات التوراتية إشارة طومسون عن عدم وجود مركز قوة سياسي واقتصادي يتجاوز حدود الأقاليم المحلية في فلسطين تجاهلا تاما في بحثه عن الدولة الإسرائيلية في العصر الحديدي المبكر، وكان من الواجب أن تؤدي دراسة الأوجه الأعم للإمبريالية إلى موقف اكثر حذراً يخفف من غلواء المطالب الأكثر تطرفا، التـي تزعم أن دولة داود كانت أحد القوى الرئيسية في العالم القديم، كما ينظر إلى مملكة داود علـى أنها قللت من شان الهيمنة الإمبريالية الخارجية تلك الهيمنة التي كانت سمة ملازمـة لتـاريخ فلسطين من العصر البرونزي وحتى عصرنا الحالي ، كما كانت الحقيقة الأعم للقوة الإمبريالية والهيمنة التي سعت إلى السيطرة على فلسطين ورسم ملامحها طوال ترايخها. على الرغم مـن ذلك فان أنصار اختلاق وجود ماض متخيل لإمبراطورية داود. لكن هذا لا يعنـي أن جميـع الإمبراطوريات متشابهة بنيوياً فهناك اختلافات واضحة بين الإمبراطوريات سواء في الماضي أو في الحاضر.

ويقول الكاتب بان دراسة كنيدى kennedy قد كشفت المهمة حول صعود القوى العظمي وسقوطها عن علاقة مهمة جداً بين الاقتصاد والسلطة، وهذه الفكرة تتحدى الإصرار على ترويج ماضٍ متخيل لقوة عظمى حكمها داود في العالم القديم.

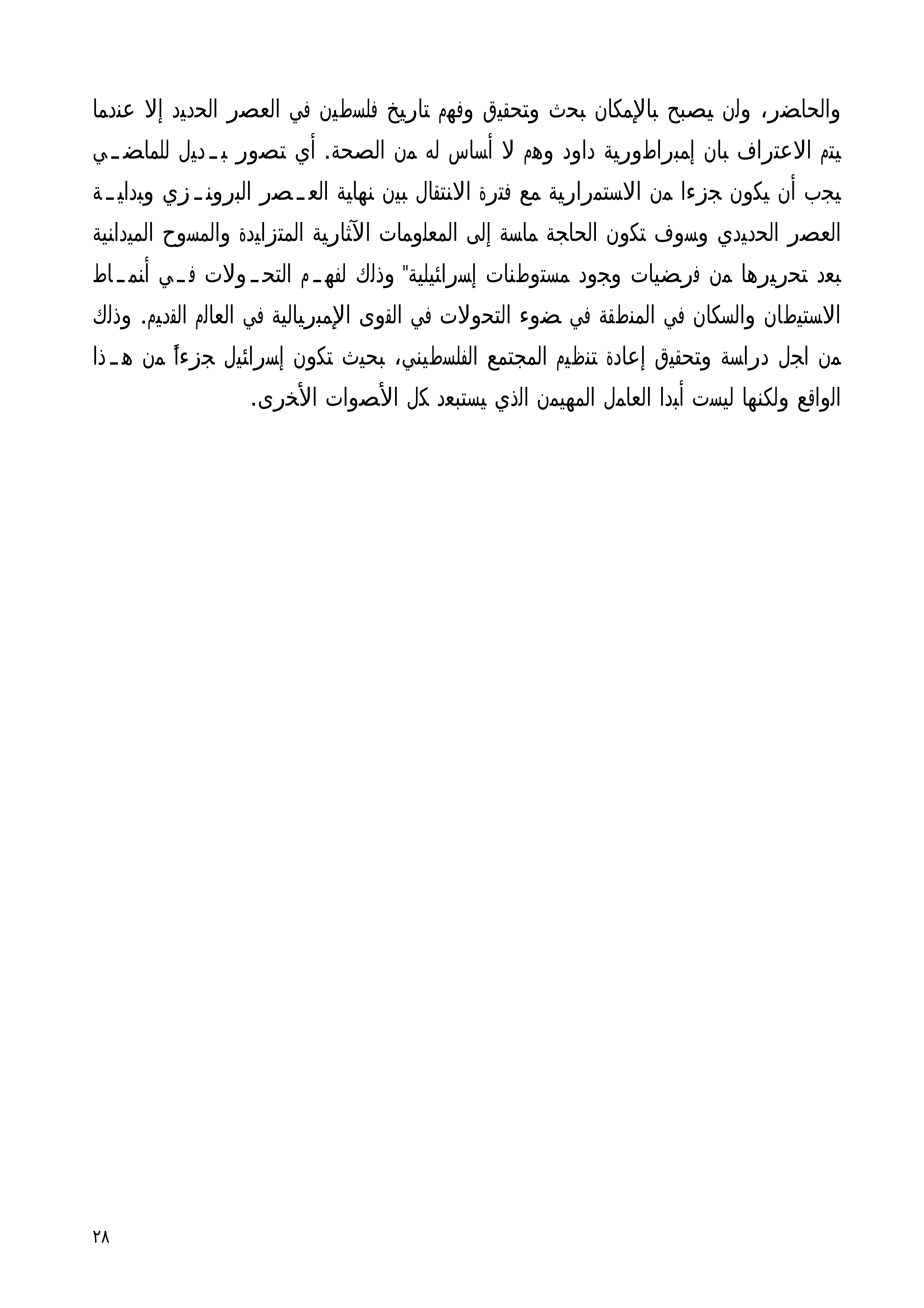
*** تحرير التاريخ الفلسطيني:-**

يقول الكاتب بأنه يوجد عدة عوامل تضافرت من اجل هدم ادعاءات الدراسات التوراتية التي تزعم اكتشاف وجود إمبراطورية داود ودولة إسرائيلية هيمنت على تاريخ فلسطين وهي مثل: "تغير أساليب البحث في النظر إلى النص التوراتي والافتقار إلى الشواهد الآثارية، وضعف البنى التحتية في فلسطين مقارنة مع القوى الأخرى في العالم" .

وهذا يعني أن تاريخ فلسطين حرر من قبضة الماضي المتخيل الذي تدعي إسرائيل وحدها المطالبة به.

والوضع الذي تم وصفه يوضح قوة هذا الخطاب في عرقلة أي ادعاءات بديلة للماضي على الرغم من الافتقار إلى أدلة قاطعة لإثبات مثل هذه التصورات المهيمنة.

على الرغم من ذلك ظلت الدراسات التوراتية صامتة بشكل غريب في محاولتها تفسير عدم وجود الدلائل الآثارية التي تثبت وجود مثل تلك الإمبراطوريات المجيدة، وحاولت بديلاً من ذلك استغلال صمت الأدلة الآثارية بتقديم تصور لهذا الماضي مبني على التراث التوراتي قد يكون الرد هو أن تحدي التصور المهيمن هو ببساطة "حجة مريحة مرتكزة على الصمت أو الغياب" ولقد نجحت دولة إسرائيلية أو إمبراطورية خيالية في إسكات صوت أي فهم آخر للماضي، لقد ساهمت الدراسات التوراتية في العمل الإمبريالي ، من خلال الإسهام في خلق تصور عن الماضي ، أنكر أي مطالبات أخري بهذا الماضي، هذا الفهم للماضي كانت له آثار سياسية عميقة ، إذ أكد وادادعاءات إسرائيل الحديثة في الأرض مقابل ادعاءات الفلسطينيين في الماضي وفي الأرض، إن الخطاب المهيمن للدراسات التوراتية متورط في عملية تجريد الفلسطينيين من ماضيهم وأرضهم بتكراره المستمر عددا من الادعاءات التي تربط الماضي بالحاضر كالادعاء بامتلاك الأرض والتركيز على فساد وعدم كفاءة وفشل الأنظمة السياسية المحلية في الوصول إلى ذروة الحضارة، وتأكيد الحاجة إلى مهاجرين قادمين من خارج فلسطين لتحقيق فكرة"إسرائيل الكبرى" إن الإصرار على الاستمرارية بين الماضي والحاضر لا ينظر إليه أبدا إلا في إطار الاستمرارية بين إسرائيل التي حكمها داود ودولة إسرائيل المعاصرة ، أما الشعب الفلسطيني فليس هناك أي مفهوم مماثل لأي استمرارية له بين الماضي



والحاضر، ولن يصبح بالإمكان بحث وتحقيق وفهم تاريخ فلسطين في العصر الحديد إلا عندما يتم الاعتراف بان إمبراطورية داود وهم لا أساس له من الصحة. أي تصور بديل للماضي يجب أن يكون جزءا من الاستمرارية مع فترة الانتقال بين نهاية العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي وسوف تكون الحاجة ماسة إلى المعلومات الآثارية المتزايدة والمسوح الميدانية بعد تحريرها من فرضيات وجود مستوطنات إسرائيلية" وذلك لفهم التحولات في أنماط الاستيطان والسكان في المنطقة في ضوء التحولات في القوى الإمبريالية في العالم القديم. وذلك من اجل دراسة وتحقيق إعادة تنظيم المجتمع الفلسطيني، بحيث تكون إسرائيل جزءاً من هذا الواقع ولكنها ليست أبدا العامل المهيمن الذي يستبعد كل الأصوات الأخرى.

الفصل الخامس

البحث المستمر

♦ آثار إسرائيل المبكرة : ـ

إن احتمال تحقيق دراسة التاريخ الفلسطيني في هذه الفترات ، بوصفه موضوعاً قائماً بذاته أصبح ممكناً من جراء التحول الملحوظ الذي حدث في السنوات الأخيرة في طبيعة الأبحاث الأثرية في المنطقة لقد أصبح هذا ممكنا بسبب تغيير بؤرة التركيز لدي علماء الآثار من الاهتمام المفتقر علي التلال الحضرية المدنية في بداية التنقيبات الأثرية في المنطقة إلي اهتمام أكثر اتزانا بأعمال المسح الميدانية بالإضافة إلي التنقيبات الأثرية لمناطق حضرية أكبر ومواقع ريفية أصغر ينتمي الكثير منها إلي عصر واحد . فالنصوص التوراتية كثيراً ما تشير إلي مراكز حضارية كبري أو تذكر شيئاً عن احتلالها أو تدميرها ولذلك كان طبيعياً أن يركز " علماء الآثار التوراتيون " علي مثل هذه التلال الأثرية لإثبات أحداث الماضي ، ولإبراز حقائق إسرائيل القديمة والتوراة ، إضافة إلي ذلك كان من الطبيعي البحث عن الدلائل التي تؤكد ذلك الوجود في المناطق الحضرية الرئيسية ، وهي الدلائل التي تثبت بوضوح وجود دولة إسرائيل في الماضي حسب اعتقادهم إلا أن التحول الجوهري من التنقيب في مواقع أحادية إلي إبداء اهتمام أكبر في أعمال المسح الميدانية

يعتبر الكاتب أن المؤرخ سنودغراس Snodg rass استعان بأعمال المسح الأثرية وأكد علي أهميتها فيقول سنودغراس : " أنه علي الرغم من أن المعلومات التي تستخلص من المسح والتنقيب الأثري هي شئ أساس لدراسة الاستيطان الفلسطيني فانه لا يوجد إلا سلسلة من النصوص المجتزأة ، وهي نصوص مجتزأة لأنه لم يتم مسح جميع المناطق الفرعية بالتركيز نفسه ، ولأن المعلومات الجديدة التي أتي بها هذا التحول في الاستراتيجية من التنقيبات الأثرية التي ركزت علي التلال لم يبدأ استغلاله إلا مؤخراً في المؤلفات التاريخية الشاملة ، وفي توليد نظريات جديدة والأهم من هذا هو أن هذا التحيز تحكمه المسلمات السياسية واللاهوتية التي تخطط وتفسر مثل هذه المشروعات . علي الرغم من ذلك فان هذا الاتجاه هو الواعد أكثر من غيرة من الاتجاهات بالنسبة للمؤرخ الذي يحرص كل الحرص علي طبيعة الاستيطان والتنظيم والاقتصاد في المجتمع الفلسطيني القديم . إن كمية المعلومات تتزايد بوتيرة عالية ، ولكن يظل صحيحاً أن المؤرخ سيواجه دائما بمعلومات مجتزأة ، مهما كان شمول التنقيبات

الأثرية كما أن سنودغراس يثير سؤالا مهماً حول الفروق في أساليب المسح ، المسح المركز ، والمسح الواسع النطاق . أما المسح المركز أو المكثف فمن الواضح أنه يحتاج إلي عمالة أكبر وأكبر وأكثر تكلفة بالقياس إلي حجم المنطقة التي يمكن استكشافها ، فسنودغراس اختار النـوع الأول بناء علي معلومات تفيد أن أعمال المسح المكثفة في اليونان كشفت عن كثافة في المواقع كانت أعلي بنسبة خمسين مرة أو أكثر من أعمال المسح المتسعة النطاق ، ويلاحظ أن هذا يثير سؤالاً مهماً حول الكمية الكبيرة من المعلومات التي يمكن أن تضيع في أعمال المسح المتـسعة النطاق . وهذا يشكل عائقاً أساسياً لدراسة أنماط الاستيطان والتحولات في التاريخ الفلسطيني ، إذ أن المؤرخ في هذه الحالة يضطر إلي التعامل مع معلومات لا تسمح إلا بتعميمات كبيرة عن الاتجاهات السكانية والاقتصادية والاستيطانية في المنطقة وعلي الرغم من أن التعامل يتم مـع قاعدة معلومات متوسعة فإن الصعوبات العملية والمادية سوف تعوق بـشدة اسـتكمال أعمـال المسح المكثفة للمنطقة كلها . وأفضل ما يمكن توقعه هو مزيج من الدراسات المكثفة والواسعة النطاق حتى تتم مقارنة المعلومات وتعديلها عند الضرورة ، كما أن سنود غـراس Snod grass يشير إلي قصور مهم آخر فهو لا يطور فكرة الارتباط بالحاضر . فهو يقول أنـة فـي حالـة التنقيب عن الآثار اليونانية والتاريخ اليوناني وبرغم أنها كانت هـدفاً للتـصورات الأوروبيـة المتعصبة نفسها فإنها لم تعان مثلما عانت فلسطين من البحث عن " إسرائيل القديمة " فقد أعيق استخدام المخزون الجديد من المعلومات الخاصة بالتاريخ الفلسطيني القديم بـسبب المـسلمات اللاهوتية والسياسية والمهيمنة التي فرضت البحث عن إسرائيل القديمـة ، المفارقـة هـي أن الإمكانيات الجديدة لدراسة وتطوير التاريخ الفلسطيني التي فتحتها أعمال المسح هذه قد حجبت من جراء البحث المهيمن عن إسرائيل القديمة ، وهذا المخزون الجديد من المعلومات اسـتغلته إستراتيجيات البحث نفسها التي اختلقت إسرائيل القديمة ، وحددت موقعها الزمنـي فـي فتـرة الانتقال من أواخر العصر البرونزي إلي بداية العصر الحديدي ، وكانت المسلمات اللاهوتيـة والسياسية الملازمة للبحث عن إسرائيل القديمة قد تحكمت في تحديد إستراتيجيات البحث فإنهـا تحكمت أيضاً في تحديد طبيعة النتائج وكيفية استخدامها ، وهـذا ينفـي عـن البحـث صـفة الموضوعية التي تجعله معلومات موضوعية للمؤرخ ، مما يمكنه من سرد قصة تعكس رؤيـة موثوقاً فيها للماضي ، فالمؤرخ يواجه بنصوص متحيزة بكل ما تعنيـه الكلمـة ، إن الافتتـان بإسرائيل هو الذي هيمن علي علم الآثار التوراتي ، بحيث تم التركيز علي المواقـع الفرعيـة والفترات التي كان يعتقد أنها تلقي ضوءاً علي نشوء وتطور إسرائيل ، إن تسلط فكرة " نـشوء

إسرائيل " كان معناه أن موارد علمية ضخمة ركزت علي فترة الانتقال مـن نهايـة العـصر البرونزي إلي أوائل العصر الحديدي ، فيما يتعلق بأعمال المسح الميدانية التنقيبات إذ كان يعتقد أن إسرائيل وجدت في تلك الفترة ، يلاحظ أن أكثر أعمال المسح الميدانية تركيزاً قد تمت فـي منطقة التلال الوسطي في فلسطين لأن الاعتماد ساد منذ آلت واولبرايت وبعدهما بأن هذه هـي المنطقة التي كانت فيها المستوطنات " الإسرائيلية " .

إن " مسح أرض إسرائيل " The land of Israel survey استمر في القيام بأعمال حيوية في مناطق مختلفة ، مضيفا إلي المعلومات القيمة ، بينما أعمال المسح الميدانيـة فـي الأردن قـد بـدأت بالتزويد بمعلومات أساسية حول مناطق لم تكن معروفة من الناحية الأثرية حتى وقت قريـب ، غير أن المنطقة الساحلية من فلسطين وهي حيوية جداً في تاريخ المنطقة ، لم يتم اسـتطلاعها ومسحها بالدرجة نفسها ، لذلك من غير الممكن إجراء المقارنات بين مناطق فرعية قد تكـون مهمة جداً .

ويقول الكاتب بأن المؤرخ إسرائيل فينكلشتاين Fsrael Finkelstein الذي أسهم بـالكثير لتوفير المعلومات المسحية والأثرية ،قد صرح بأن المراكز الحضرية " الكنعانية "لم تقل شـيئاً عن "الاستيطان الإسرائيلي ".

ويشعر الكاتب بأنه يوجد مفارقة تتجسد في أعمال المسح التي تمت حتى الآن فهي أساسية فـي البحت عن التاريخ الفلسطيني ولكنها أيضاً تعبير عن الحق في الأرض رسم الخرائط والتصور المجرد لهذه الأرض . ولذا اضطلع الباحثون الإسرائيليون بأعمال المساحة في منطقة "منسي " MANASSEh ، ومنطقة إفرايم ، ومنطقة يهودا ، وفي الجليل الغربي ، والجليل الجنوبي ، نجد أن الاصطلاحات مهمة جداً نظراً إلي الادعاء بأن أعمال المسح هذه تتعلق "بمناطق قبلية " تتجسد في أعمال منسي ، وإفرايم ، ويهودا ، هذه التسميات تعزز البحث عن إسرائيل القديمـة وتدعم الاعتقاد بأن هذه هي أرض إسرائيل ، ويؤدي تركيز الجهود علي الضفة الغربية المحتلة إلي دعم البحث عن إسرائيل القديمة كما يتخيله التراث التوراتي ، إنه إدعاء بالحق في الأرض عن طريق إطلاق الأسماء ورسم الخرائط إن تحديد هوية المواقع " الإسرائيلية "والآثار المادية "الإسرائيلية " جزء أساسي ، سواء بطريقة واعية أو غير واعية ، من التخطيط السياسي لعلـم الآثار . كما أن البحث عن هذه الحقائق المادية وتحديد موقعها في أمكنة مختلفة من العالم ، هو عامل حاسم في بناء الهوية الاجتماعية أو تأكيدها ، فاكتشاف الماضي يوفر عامل التحام يساعد علي تأكيد الحاضر .

إن البحث عن إسرائيل القديمة قد اكتسب طابع الحقيقة عن طريق مادية عملية التنقيب عن الآثار . ولكن المفارقة الحقيقية تكمن في أن الانتقال علي أعمال المسح الميداني هو الذي فتح الباب لإمكان إحراز تقدم في إثبات حقيقة التاريخ الفلسطيني ، والإفصاح عنه ، علي حين أن النتيجة العملية لهذه الأعمال كانت ترسيخ وجود إسرائيل القديمة في الماضي ، وخلق حضور حقيقي لها من خلال " حقها التاريخي " في الأرض . وقد أضافت أعمال المسح المكثفة يمكن استبعاد هذا التاريخ علي أنه تاريخ متخيل إذا كانتا الحقائق الملموسة للحضور والامتلاك واضحة جداً في أعمال المسح إن الاعتراف بأن مثل هذا الاستدلال علي حقيقة وجود إسرائيل في الماضي هو في صميمه استدلال يدور في حلقة مفرغة - هذا الاعتراف هو وحده الكفيل بأن يوضح أن تفسير المعطيات التي تقدمها أعمال التنقيب والمسح الأثريين ، قد أدت إلي اختلاق ماضي متخيل ، ويشير الكاتب بأن المعضلة بالنسبة لعلماء الآثار هي افتراضهم سلفاً أن إسرائيل القديمة سكنت مناطق معينة من البلاد . ومن ثم كان ينبغي أن يكون من الممكن تمييز المناطق التي يشغلها إسرائيليون ، ومع ذلك فحتى بعد أن اتضح أن أنواعاً معينة من الخزف والأشكال المعمارية كانت موجودة في مناطق مختلفة من فلسطين ، أو في مناطق لا تعتبرها التوراة إسرائيلية ، فإن الدفاع نحو البحث عن إسرائيل القديمة والعثور عليهما قد استمر بلا هوادة ، ذلك لأن خطاب الدراسات التوراتية قد شجع هذا البحث الاحتياطي عن تاريخ متخيل ، وتعزز هذا الوضع من جراء احتياج دولة إسرائيل الحديثة ، سياسيا ، إلي أن تجد لنفسها مكاناً في الماضي . علي الرغم من أن المكتشفات الأثرية المتزايدة والأبحاث التي نظرت إلي النصوص التوراتية بطريقة نقدية تاريخية علي الرغم من أن هذه العوامل أدت إلي تحطيم النموذج المهيمن dominate paradigm فإن هذا النموذج لا تزال له من السيطرة القوية علي إدراك الباحثين الغربيين والإسرائيليين ووعيهم ما يجعله يتشبث بمكانته بقوة في وجه هذا التيار المعارض المكتسح ، وهذا من أوضح الأمثلة التي تكشف عن قدره خطاب الدراسات التوراتية علي إسكات التاريخ الفلسطيني والوقوف في وجه أي محاولة للإتيان برواية بديلة للماضي لقد رفعت الدراسات التوراتية علم الآثار المسيس ، الذي توجد له أمثلة في مناطق عديدة من العالم ، إلي مرتبة الفن الرفيع

*** البحث الجديد عن إسرائيل القديمة .**

ساعد التحول في إستراتيجيات البحث نحو تركيز أكبر علي أعمال المسح المحلية المركزة ، في وقت فضحت فيه العلوم الاجتماعية واتجاهات مختلفة في الإنسانيات الدراسات التوراتية

وقوضت مفاهيمها عن النص ، مما أسهم في التقليل من شأن بعض التصورات التقليدية لتاريخ إسرائيل المتخيل ، إلا أن البحث عن إسرائيل القديمة استمر بلا هوادة ، ومع أن نقد أوجه مـن خطاب الدراسات التوراتية المهيمن ساعد في تصديع هذه النماذج ، إلا أن هذه الدراسات ذاتها تنطوي أيضاً علي خلط واضطراب متأصل فيها بينما تركز هذه الأعمال النقدية علي التحديـد الزمني لإسرائيل القديمة سواء أكان ذلك في بداية العصر الحديدي أو آخـره ، علـي الفتـرة الفارسية أو الهلنستية ، فان المحاولات التمهيدية لترويج فكرة الحاجة الماسة إلي فصل الدراسة التاريخية للمنطقة عن الدراسات التوراتية لم تحل معضلتها بعد ، وهذا الإرباك يسهم في إسكات التاريخ الفلسطيني لذلك فإن الأعمال النقدية ذاتها متورطة في البحث " الجديد " عـن إسـرائيل القديمة ، بعد فشل هذا البحث الجديد تصبح الحاجة ماسة بدرجة أكبر دراسة تاريخ المنطقـة، وإعادة النظر فيها ، تركز الجدل علي ثلاث فترات مهمة مرتبطة ببعضها الـبعض : تـاريخ التراث التوراتي وعلاقته بالبناء التاريخي ، ومغـزى لـوح مرنبتـاح الحجـري المنقـوش (merneptah stele) ، وتفسير المعلومات والدلائل الأثرية الحديثة في عملية البحث عـن إسرائيل أو تحقيق التاريخ الفلسطيني .

هناك إدراك واسع الانتشار بأن من المسلمات الريئسية المتفق عليها في البحث " الجديد " عـن إسرائيل القديمة هو رفض التراث التوراتي لإعادة البناء التاريخي لفتـرة العـصر البرونـزي المتأخر وبداية العصر الحديدي . يعتبر الكاتب أن أحد أكثر أوجه هذا البحـث الجديـد عـن إسرائيل القديمة إثارة والذي يعكس الاتجاه المتزايد في هذا الفراغ من المعرفة بشكل عام هـو محاولة دفع تاريخ التراث التوراتي إلي فترات لاحقة زمنياً إن البحث الجديـد عـن إسـرائيل القديمة لم يتمكن من الإفلات من قبضة لمسلمات خطاب الدراسات التوراتية المتسلط ، وهكـذا ظل البحث بحثاً عن إسرائيل القديمة بدلاً من أن يكون إحياء للتـاريخ الفلـسطيني لقـد ظـل التشويش والخلط بين العلاقة بين التاريخ الإسرائيلي والتاريخ الفلسطيني عقبة كأداء في وجـه تحقيق التحولات بعيدة الأثر التي كانت تجري عندئذ في الدراسات التوراتية وفروع المعرفـة المتصلة بها فقد صاغ طومسون رؤيته " للتاريخ المستقبل " في إطار لغة التاريخ الإسـرائيلي بدلاً من التاريخ الفلسطيني ، أما الاستقلالية المبتغاة فهي الاستقلال من هيمنة النص التـوراتي في تحديد طبيعة التاريخ الإسرائيلي والفترات التي ينقسم إليها ، واهتماماته الأساسية ، كما كانتا الحال في " التورايخ التوراتية " التقليدية ،ولكن هذه الرؤية كافحت للإفـلات مـن مجموعـة

الفرضيات المهيمنة في خطاب الدراسات التوراتية التي صاغت طابع البحث عن إسرائيل القديمة لأكثر من قرن .

لقد كانت توجد محاولة داعية لإثارة الشكوك حول البناءات المستوحاة من التوراة في ضوء الأنثروبولوجي الاجتماعية وتأويل المعطيات الأثرية المتبقية من المنطقة وذلك للبحث " الجديد عن إسرائيل القديمة . فيقول الكاتب: "بان كتاب ليمكه lemche الضخم عن إسرائيل المبكرة بدأ باعتباره نقداً لأعمال المؤرخ مند نهول mendenhay وغوتفالد Gottwald وهو يحتوي علي كم هائل من المعلومات الأنثروبولوجي حول طبيعة العلاقات الاجتماعية في فلسطين القديمة، ويعترف ليمكه بأن دراسة الأعمال الأنثروبولوجية الحالية تأخذ حيزاً كبيراً وغير متناسب من النص ، ولكنه يقدم أحد أكثر المعالجات الشاملة للنظرية والمعلومات الأنثروبولوجية، كجزء من العمل النقدي الذي يطلق علية فرضية الثورة the revolution hypothesis والبناءات السابقة للماضي التي جاء بها كل من آلت Alt، نوت noth أولبرليت Albright ، برايت Bright ، فهم يعتمدون اعتمادا كبيراً علي الأنثروبولوجيا الاجتماعية في محاولتهم فهم طبيعة العلاقات الاجتماعية في فلسطين في نهاية العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي إلا أنه في جميع هذه الأعمال يكون الانشغال باسم إسرائيل وبالبحث عن إسرائيل القديمة ، وقوة خطاب الكتّاب التوراتيين في تصورهم لتاريخ إسرائيل المختلق يستمر في إعاقة البحث عن التاريخ الفلسطيني ويشوهه

يبدو ظاهرياً أن كل هذه الأعمال تدل علي وجود اهتمام بالسمات العامة للتاريخ الفلسطيني في أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي، ويوضح المؤرخ آلستروم أن التحول في نمط الاستيطان كان ذا دوافع محلية indigenous ويفسر في ضوء العوامل الاجتماعية والسياسية المؤثرة في المنطقة إلا أن إفتتانه المتواصل بالبحث عن إسرائيل القديمة ، وقد حال بينه وبين تكوين تصور للماضي ، والتعمق في دراسة التاريخ الفلسطيني من هذه الزاوية يظل مكبلاً بالتصورات المستوحاة من التوراة حول فترة ما قبل المملكة ، والفترة الملكية في التاريخ الإسرائيلي

يعتبر الكاتب أنن أفكار المؤرخ ليمكه تحرر النقاش من قيود التوراة العبرية ومن البحث عن إسرائيل القديمة فهو يعبر عن الحاجة إلي دراسة تاريخ المنطقة بعيداً عن التسميات العرقية المقيدة ، والتي هيمنت حتى الآن علي النقاش وضللته . ومن هذا المنطلق فان تاريخ فلسطين لا يشكل إلا خلفية لماضي إسرائيل ، فإسرائيل هي التي تطالب بامتلاك الأرض والماضي . وفي

صحيح هذه الدراسات صعوبة أساسية في مواجهة هذه المشكلة فكل من أعمال آلستروم وليمكه حاولا ترويج لفكرة وجود تاريخ فلسطيني كموضوع قائم بذاته ، ولكنهما في الوقت نفسه ، ظلا دواماً مقيدين بخطاب الدراسات التوراتية الذي أصر علي إداعـاءات إسـرائيل بحقهـا فـي الماضي، كما رفضت بشدة الفكرة القائلة إننا لا يمكن أن نعرف عن تاريخ إسرائيل في فتـرة الانتقال الواقعة بين أواخر العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي إلا القليل أو حتى لا شـئ علي الإطلاق ، أو أن تاريخ إسرائيل في هذه الفترة يجب ألا يلعب إلا دوراً ثانوياً في محاولـة فهم التاريخ الفلسطيني القديم ، فالدراسات التوراتية ليست متورطة في " الإمبريالية الناظرة إلي الوراء " retrogective

imperialism وحسب ، بل إنها تآمرت في عملية السلب .

إن بناء الكيان الذهني المختلق " إسرائيل القديمة " قد أسكت تاريخ السكان الأصليين في فلسطين في العصر الحديدي المبكر "



الفصل السادس

رد الاعتبار للتاريخ الفلسطيني

لقد إستأثرت الدراسات اللاهوتية والدينية ، من خلال خطاب الدراسات التوراتية ، بحق تمثيل التاريخ الفلسطيني القديم في فترة العصر البرونزي المتأخر، وبداية العصر الحديدي ، وفترات أخري كثيرة ، ولقد كان ذلك استمرار لحق إعادة الرحالة الأوروبيون خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وخلال هذين القرنين أصلاً أصبح التاريخ الفلسطيني أحد التواريخ " المستبعدة " من التاريخ ، من جراء التسلط الذي مارسه المتخصصون في الدراسات التوراتية والمؤرخون وعلماء الآثار علي تاريخ فلسطين والشرق الأدنى . وكانت نتيجة ذلك حرمان التاريخ الفلسطيني من مكان خاص به في الخطاب الأكاديمي الغربي، ولقد تزامن إهتمام أوروبا الاستراتيجي بفلسطين مع سعيها لمعرفة جذور حضارتها كما حددتها إسرائيل القديمة ، وفي قبول المتخصصين التوراتيين بشكل عام ، بتصور الماضي كما جاء في التراث التوراتي ، فقد بدأوا بالبحث عن الوجود المادي لإسرائيل من خلال الآثار والمباني الباقية في تلك الأرض ، فكان ما وجدوه أو ما كانوا ميالين إلي أن يجدوه ، هو إسرائيل شبيهة بدولهم القومية فقد صورت إسرائيل بأنها دولة ناشئة تبحث عن وطن قومي تستطيع أن تُعبر فيه عن وعيها القومي . وفي القرن العشرين ، هيمن هذا الإسقاط لإسرائيل القديمة علي فترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي . وقد ازدادت أهمية هذا التمثيل للماضي وأصبح أكثر نفوذاً مع الحركة الصهيونية ، التي هي في جوهرها مشروع أوروبي . وكان تاريخها ينظر إليه علي أنه مرآة عاكسة لغزو إسرائيل القديمة للأرض الذي أعقبه إنشاء دولة قومية تمكنت بسرعة من السيطرة علي المنطقة ، حيث يمكن إثارة الأسئلة حول طبيعة إسرائيل القديمة والطريقة التي اكتسبت بها الأرض ، ولكن بالنسبة لخطاب الدراسات التوراتية لم يكن هناك أي شك في أن هذا التاريخ هو تاريخ " إسرائيل " والأرض هي أرض إسرائيل " أما حق الشعب الأصلي في هذه الأرض أو حقه في معرفة تاريخه فلم يكن له أي أهمية تذكر في ذلك السياق لقد أصبح تصوير الماضي علي هذا النحو حقيقة يصعب الشك فيها ، نتيجة لتكرارها المستمر علي ألسنة أهم الأكاديميين المتخصصين في المجال التوراتي .

إن تطور الكتابات التاريخية في فترة ما بعد الاستعمار ، لم يكن له إلا تأثير قليل جداً في مشروع الكتابة التاريخية لدي علماء الدراسات التوراتية ، وقد حافظ البحث العلمي الأمريكي

والإسرائيلي في الجزء الأخير من القرن العشرين علي ذلك التحكم القوي في الماضـي الـذي حققته الدراسات العلمية الأوروبية . وذلك حين صور هذا التاريخ بأنة فترة نـشوء إسـرائيل وسيطرتها علي المنطقة بصفتها القوة الأساسية فيها ، لقد أثار إدوارد سعيد إلي المـدى الـذي تمتعت فيه إسرائيل منذ نشأتها عام ١٩٤٨ بسيطرة مدهشة علي البحث الأكاديمي ، بالإضـافة إلي مجالات أخري كثيرة ، إن توظيف الطاقات الهائلة ، العقلية والمادية ، للبحث عن إسرائيل القديمة لا يقابله أي بحث مماثل عن التاريخ الفلسطيني للفترة نفسها ولأي من الفترات اللاحقة ، وهكذا تضافرت الدينية والسياسية وراء بحث الغرب وإسرائيل علي إنكار حق الشعب الأصلي في أن يكون ممثلاً في التاريخ ، إن تاريخ فلسطين القديم هو موضوع تم إسـتبعاده بواسـطة اللاهوت كما تجاهله التاريخ أما السعي وراء كتابة التاريخ التي تتماشى مع عـصر مـا بعـد الاستعمار ، وكذلك محاولة إعطاء صوت للعديد من التواريخ التي حكم عليها بألا يكون جـزءاً من التواريخ المعتمدة رسمياً ، لم يمت الاستعمار مادامت فرضياته بالتفوق ، وحـق اسـتعمال القوة لا تزال متأصلة في خطاب الدراسات التوراتية ذلك الخطاب الذي تبنته ودعمته الدراسات الإسرائيلية بعد عام ١٩٤٨ ، إن هذا الخطاب البلاغي الذي سمح له بأن يشكل الماضي المتخيل لفترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي في فلسطين ، قد أنتج تصوير للماضي يحط من قدر الثقافات والتواريخ المحلية ولا يزال يدافع عن هذا التصوير ، فخطاب الدراسات التوراتية شأنه شأن الخطاب الصهيوني المعاصر ، يرفض الاعتراف بالقيمة الكامنـة للثقافـة المحلية وحقها في أن يكون لها تاريخها الخاص .

لقد أخفق النضال من أجل " السماح برد التاريخ " الفلسطيني المعاصـر وتجـدر ملاحظـة أن التاريخ الفلسطيني من " الفترة التوراتية " وهي الفترة التي سبقت الفترة الرومانية والبيزنطية ، قد تم التخلي عنها لمصلحة الغرب وإسرائيل ، إن إسرائيل التي تم اختلاقها والتي تعـود إلـي فترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي ، قد ألقت بظلال سيطرتها بأثر رجعـي لكي تتمكن من المطالبة بفترات سابقة باعتبارها " تاريخها السابق " وهذا جزء من المـشروع التطوري سواء أكان دنيوياً أو سياسياً أو دينياً ، وهو ما أثر وأسهم في إزاحة التاريخ الفلسطيني القديم . لقد كانت الدراسات التوراتية جزءاً مهماً من النظـام المعقـد والعوامـل الأكاديميـة والاقتصادية والعسكرية ، التي أنكرت علي الفلسطينيين مكاناً في العالم وفي التاريخ ، فإن عدداً لا يحصي من الأكاديميين قد أشاروا إلي المنطقة في الفترة البرونزية المتأخرة وفترة العـصر الحديدي علي أنها فلسطين ، بما في ذلك " الاقتصاد الفلسطيني " و" المرتفعات الفلسطينية " أو "

الساحل الفلسطيني " ولكن الشعب نفسه ظل بلا اسم أو ألصق وصف عرقي معين ، مما دعـم الفرضيات التطورية التي روجت فكرة أن إسرائيل قد حلت محل هذا الشعب أو تجاوزته حيث أن إدوارد سعيد قال : "بأن أهم مظاهر نجاح الحركة الصهيونية كان غياب أي تاريخ رئيـسي لفلسطين العربية وسكانها ، وكأن شبكة تفاصيل الـصيهونية ومسلـسل أحـداثها قـد خنقـت الفلسطينيين ، واستبعدتهم ليس فقط من العالم بل من أنفسهم أيضاً " .

ذلك أن اهتمام سعيد ينصب في المقام الأول علي التاريخ المعاصر لفلسطين ابتداء من القـرن الثامن عشر وحتى الوقت الحاضر ، لكي يرد علي الادعاءات الصيهونية وعلي تلك المتأثر بها ، ولكن بحث أوروبا عن نفسها ، الذي اقتبسته الصهيونية وعملت به فـي محاولتهـا إضـفاء الشرعية علي جذورها ، قد استبعد

أي مطالبة فلسطينية بفترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي ، ويبلـغ هـذا الاستبعاد حداً من القوة يجعل فكرة وجود تاريخ فلسطيني لا تخطر حتى ببال الكتّاب المهتمـين بنقد الفكر الصهيوني المعاصر ، إن الثقل المستبد لهذا الصمت يتخلـل الدراسـات التوراتيـة برمتها ، وأي إهتمام بالسياق الذي يعمل في إطاره الدراسات التوراتية وكذلك الأعمال الأثرية ، وكذلك بالصراع الحالي حول الأرض وتقرير المصير، شئ غائب تماماً . وعندما تطفو هـذه الأمور علي السطح فإنها تظهر في شكل أسف أو ألم نفسي حول هذه الأرض المضطربة الأقل في تحقيق سلام لشعوبها ، إلا أن هذا الاعتراف هو اعتراف بالحقـائق ومـضامين الـصراع السياسي الدائر بين إسرائيل والفلسطينيين ، والذي لا يـسمح لـه بالتعـدي علـي التمثيـل (الموضوعي) للخطاب الأكاديمي . إن مضامين تصوير التاريخ الإسـرائيلي حـول الـصراع الدائر حالياً لا يزال شيئاً غير مصرح به علي نطاق واسع ، فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة المهمة .

تدل ردود الفعل الحادة علي التواريخ التي تسعي إلي تصحيح هذا الوضع منذ أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينات علي أن الإجماع قد بدء بالتصدع وأن الرواية الأصل لم يعد مـن الممكـن الإبقاء عليها والدفاع عنها إلا بصعوبة .إن الاتجاه منذ الثمانينات وحتى الآن نحو نشر مؤلفات أصغر حجماً بكثير حول تاريخ إسرائيل القديم وتاريخ يهودا ، وهي المؤلفات التي تتـصدرها عادة مقدمات نقدية أطول ، وهذا يدل علي الوصول إلي نقطة تمثيل تـاريخ المنطقـة وحتـى يعطي صوت لتاريخ فلسطيني بديل ، وإلي قراءة ما بعد إستعمارية متجانسة ومنسجمة لتـاريخ فلسطين القديم فإنه لا غني عن بناء خطاب بلاغي للتاريخ الفلسطيني خاص به

*** استعادة التاريخ الفلسطيني :-**

إن المعلومات الأثرية حول فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي . تمد بمعارف قيمة حول الـديموغرافيا (الـسكان) والمـستوطنات ، والاقتـصاد والتنظـيم الاجتماعي للمجتمع الفلسطيني ، وهذه المعلومات لا تثبت صراحة وجود كيان يدعي إسـرائيل حتى لو أن لوح حرنبتاح الحجري المنقوش يوحي بوجود كينونة ما بهذا الاسم في المنطقة .

إن إعادة تنظيم مجتمع العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي وتحوله كانا عمليـة معقدة جداً وبالنظر إلي أن شرق البحر المتوسط كان عبارة عن شبكة متداخلة مـن مجموعـة القوي والكيانات المحلية ، فإن أي تغيير هيكلي علي نطاق واسع من المحـتم أن يـؤثر فـي المجتمع الفلسطيني ، وكان من الضروري أن يؤدي تفشي الفوضى في منطقة واسعة من شرق البحر المتوسط في العصر البرونزي المتأخر علي جميع مستويات النشاط الاجتماعي والسياسي إلي التأثير في فلسطين أيضاً ، فقد كانت فلسطين تحتل مركزاً إستراتيجياً في المحور التجاري العالمي وكانت حركة التجارة هذه في العالم القديم شبكة معقدة تربط البحر المتوسـط والبحـر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي منذ أقدم العصور ، إلا أن موقع فلسطين علي طريـق العبور كان يعني أن فلسطين كانت تتأثر بشكل أقوي بأي خلل أو ضعف ، ووجود مثـل هـذا الاقتصاد العالمي المتكامل وبخاصة في شرق البحر المتوسط خلال العصر البرونزي المتأخر ، كان يعني أيضاً أي خلل يقع في أي جزء من الشبكة التجارية لا بد أن يـؤثر فـي المنـاطق الأخرى ، لقد كانت فلسطين تلعب دائماً دوراً تابعاً في التجارة إذا كانت جسراً برياً ومحـوراً مائياً لاقتصاديات القوي الكبرى في القارات الرئيسية ، لذلك كانت التجمعات المدنية الفلسطينية حساسة وتتأثر بدورات التجارة العالمية ، وقد عانت بشدة من الخلل الذي حـصل فـي العـالم المسيني ، وأيا كانت الأسباب ، فانه من غير الممكن تركيز الاهتمـام علـي التحـولات فـي الاستيطان نحو المرتفعات الفلسطينية في بداية العصر الحديدي الأول دون أن نأخذ في الاعتبار التحولات الهيكلية التي أحدثتها التغيرات في الشبكات الأوسع ، إن تدهور التجارة والاقتصاد ، والظروف التي أحاطت بها ، كانت أساسية في التحول الاقتصادي والسياسي وكذلك العلاقـات الاجتماعية في فلسطين .

إن اكتشاف الأشكال والتماثيل النسائية الصغيرة في طبقات مختلفة من مواقع أثريـة فلـسطينية يقدم دوماً علي أنه دليل علي انتشار عبارة الخصوبة Fertility cult وهذا يعنـي أن تلـك الديانات المحلية المنحطة و اللا أخلاقية قد استبدلت بها ديانة التوحيد تلك الديانة التوحيدية التي

ينظر إليها علي أنها منبع الحضارة الغربية ، فان إسرائيل قد حلت محل السكان الأصـليين أي الكنعانيين ليست هناك أي اهتمام بالمزايا الجمالية لأشكال التماثيل الآدمية ، أو ما تكشفه مثـل هذه التماثيل عن القيم الجمالية أو منجزات الفنانين أو المجتمع الذي كان هذا الفنان جزءاً منـه إن العوامل الإيجابية في النظام الديني المحلي والاهتمام بالأشياء الهاشمية أو غير الممثلة تمثيلاً صحيحاً ، أو مفهوم الانسجام ، يتم اختفاؤها بتصوير حضارة ثانية علي حالها ومنحطـة مـن المجتمع أن يتم استبدالها ، ولكن عدم وجود أي خطاب مناسب لتمثيل المنجزات المحلية كـان يعني أن الخطاب الوحيد المتوافر هو الذي تم الأخذ به . وهذا الخطاب صمم خصيصاً للحـط من أي إنجاز ثقافي يعتقد أنة يعود إلي ديانة غير الديانة الإسرائيلية التي شكلت أساس الديانـة اليهودية والمسيحية اللاحقة

وبهذا فان خطاب الدراسات التوراتية قد اختلق تاريخاً كثيراً ما يعكس حاضرها في كثير مـن جوانبه ، عندئذ فقط يمكن تحرير التاريخ الفلسطيني وبالتالي يتم الاتجاه إلـي خطـاب يـسمح ببناءات وتصورات بديلة للماضي وهذا سوف يحرر أيضاً الفترات السابقة واللاحقة للمنطقة من قبضة التاريخ الإسرائيلي .

*** تحديد موقع للتاريخ الفلسطيني :-**

لقد طورت الدراسات التوراتية كأحد فروع المعرفة ، خطاباً لتصوير الماضي وتقديمه نقل إلي الجميع دون تدقيق وتمحيص ، وهذا الخطاب استولى علي أرض الفلسطينيين . كما سيطر علي تاريخهم أنة خطاب القوي ، وإذا نظر إلي هذا الخطاب من منظور غير غربي وبخاصة مـن المنظور الفلسطيني نجده خطاباً قد استبعد الأغلبية العظمي من سكان هذه المنطقة في خـضم البحث عن جذور أوروبا في (الآونة الأخيرة) البحث عن جذور إسرائيل إنه خطاب اكتـسب ثقلاً كبيراً من خلال موقعة المركزي في جميع الكليات . ولكن تبقي مسألة مهمة أيـن تعيـين موقع لتاريخ فلسطين القديم ومعه تواريخ إسرائيل ويهودا ؟ إذا لم يكن من الممكن عزل التاريخ الفلسطيني عن الخطاب التاريخي ، وإذا كان التاريخ الفلسطيني سيشكل جـزءاً مـن روايـات الماضي المتنازع عليها ، يجب أن يكون له موقع خاص به يمكن أن يتم الانطلاق منـه ، إذن تحديد موقع لسرد الروايات البديلة للتاريخ هو شئ حاسم ، حيث إنه اعتـراف بجـواز سـرد الروايات البديلة . إذا كان سيتسنى للتاريخ الفلسطيني ليتحرر من طغيان خطـاب الدراسـات التوراتية ، فمن الواجب أن يتحرر أولاً من القيود اللاهوتية التي هيمنت علي تـاريخ المنطقـة وهذا يعني أنه ينبغي أن تجد له موقعاً بديلاً ، خارج نطـاق الدراسـات التوراتيـة وينبغـي

الاعتراف بالتاريخ الفلسطيني كموضوع قائم بذاته ، وكجزء من دراسـة التـاريخ وخطـاب " الدراسات الحضارية " cultural studies إذا كان سيعطي صوتاً خاصاً به يمكنه من تحدي اختلاق تاريخ إسرائيل القديمة . ولكي يفند تاريخ فترة العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي . إن حركات التحرير في القرن العشرين قد أعطت صوتاً للفئات الهامشية والمعدمـة في المجتمع والتاريخ ، ومن المفارقات التي أدي إليها كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد أنه بينما يركز موضوع الكتاب علي الشرق الأوسط ، فإن النجاح الأكبر فيما يتعلق باسترداد الماضي قد تحقق في مجال التاريخ الهندي ، لكن في الوقت نفسه ليست هناك أي مـادة متـوافرة يمكـن مقارنتها بما قدمه سعيد في نقده لفرضيات الاستشراق في خطاب الدراسات التوراتية أو التاريخ القديم للشرق الأدنى . إن محاولات الترويج لتاريخ فلسطين القديم ، لتحدي الروايات المهنيـة حول تاريخ إسرائيل القديم ، قد جاءت من المتخصصين التوراتيين من خلال مـواقعهم فـي أقسام الدراسات التوراتية ، إذا كان سيتسنى للتاريخ الفلسطيني أن يتحرر من قيود الدراسـات التوراتية وهذا شئ لا بد منه لكي يكون هناك صوت مسموع ، فلا بد لـه أن يخلـق فـضاءه الخاص به أو الدخول في منافسة مع المواقع الموجودة حالياً . ليست من الواضح أين سـيكون موقع هذا الفضاء الذي سيسمح بسرد تاريخ فلسطين القديم . ولا في البداية من أن يحدث النزاع في المواقع الأكاديمية الموجودة الآن ضمن أقسام الدراسات التوراتية والموضـوعات القريبـة منها ، وهذا يعني في المحل الأول أنه سيحدث داخل أقسام وكليات اللاهوت إن سبب هذا هـو أن المهمة الأكثر إلحاحاً هي حاجة القائمين علي تلك الدراسات إلي إعادة النظر في مهمتهم فيما يتعلق بتطور الدراسات في سياق المشروع الاستيطاني ، والمهمة المطلوبة هي إيضاح الدوافع السياسية للدراسات التوراتية وتصورها للماضي .

إن إنجاز هذه المهمة بجدية كافية هو وحده الذي سيجعل من الممكن انتزاع التاريخ الفلـسطيني وتحريره من قبضة المصالح التي ساهمت في إسكاته طوال هذه المدة الطويلة من الـزمن . إذا لا يوجد منبر، من داخل التخصصات العلمية ، يمكن مقارنته بمشروع التاريخ الهندي المعروف حيث أنه سيكون من المحتم التحرر من قبضة وقيود الدراسات التوراتية ومن ثم المطالبة بموقع للتاريخ الفلسطيني ضمن الخطاب الأكاديمي في أقسام التاريخ ، والذي تجاهله هذا التاريخ علي أساس أنه جزء من تاريخ إسرائيل القديمة المستندة إلي التوراة ، لكن التحدي الرئيسي يظل في إعادة اكتشاف التراث الحضاري والثقافي والفني لفلسطين القديمة ، فأشكال التـراث والأوانـي

الفخارية ، والمصنوعات اليدوية ، والأبنية التذكارية و الآثار المادية كلها تشهد علي منجـزات سكان فلسطين .

****